الاستنباطات البهية

من

الأدلة الشرعية

تأليف

أبي عبد الله صادق بن عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أخي القارئ الكريم/ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أما بعد:

فهذه مجموعة من الاستنباطات الفقهية التي مَنَّ الله بها عَلَيَّ ـ وذلك إثر التدبر في بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والتي قد يكون بعضها واضحًا إلا أن في ذكرها هنا لفتة لطيفة، أو إشارة جميلة، أو بيانًا لما بدر في الذهن المكدود من معنى وافق الحق، فيكون من باب شحذ الهمة، والتأكيد على المعنى فإن الأول لم يترك للآخر مقالًا إلا فهمًا آتاه الله عبدًا في كتابه والخير كله في من سبق وفي من تبع بإحسان إلى يوم الدين، ولكنها المحاولات والذكرى والتدبر للكتاب والسنة المليئين بالأسرار والعجائب التي لا تنقضي ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] سبحانه ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، والذي أمر عباده بالتدبر والتفكر والإمعان في ذلك لاستنباط الهدايات، والمعاني العظيمة الموجودة في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ـ (علمًا بأنني كنت قد عرضتها على شيخي الفاضل العلامة المحدث سليمان بن ناصر العلوان حفظه الله ورعاه، ووقاه وسدد على الخير خطاه، فقرأها في

أغلبها وأثنى عليها خيرًا، فجزاه الله عني خير الجزاء فله اليد الطولى فيما أنا فيه من الخير، كما أن فضيلة الشيخ المحدث عبد الله السعد كان قد اطلع على أكثرها، وأثنى عليها خيرًا، ولله من قبل ومن بعد الحمد والفضل والمنة) أقدمها الآن راجيًا من الله العلي القدير أن يجعلها من العلم النافع، والعمل الصالح الذي ينتفع به صاحبه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ولقد أسميتها :

الاستنباطات البهية من الأدلة الشرعية

فما أصبت فمن الله وحده لا شريك له ـ إذ هو الذي علم بالقلم، وقد أتينا إلى الدنيا لا نعلم شيئًا فعلمنا وفهمنا وأنطقنا ـ وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، سائلًا المولى عز وجل أن ينفع بها إخواني المسلمين، وأن يطرح فيها البركة فيعم نفعها المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إنه ولي ذلك والقادر عليه آمين .

❁❁❁

الاستنباط الأول

من قول الله عز وجل: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] فيه دليل على أن الأخبار التي يسوقها الله عز وجل في كتابه العزيز، أو في السنة المطهرة على لسان رسوله ﷺ على سبيل الإخبار عما وقع مع عدم ذكر حكم ذلك الفعل الوارد في سياق الخبر لا يعني الإقرار بذلك ولا تجويزه، بل هو سياق الخبر المحض، وإنما يعلم جواز ذلك من عدمه من الأدلة الأخرى الخاصة بذلك ـ الفعل أو القول ـ الدالة على حله أو حرمته.

فقد ذكر الله تعالى هنا أن الذين غلبوا على أمرهم أخذوا على أنفسهم أن يتخذوا على قبور أصحاب الكهف مسجدًا وهذا الفعل من أعظم المحرمات والضلالات المفضية إلى الإشراك بالله رب العالمين، وإنما استفدنا هذا الحكم من النصوص الأخرى الدالة على النهي عن اتخاذ القبور مساجد كما جاء ذلك في «الصحيحين» من طرق؛ فعن أبي هريرة:أن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». ولهما عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ :عن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجدًا**» قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجدًا. ولهما عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا :لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر مثل ما صنعوا ولمسلم عن جندب قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا**

يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك».

كما أن النبي ﷺ أخبر أن من علامات الساعة نزول عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وهذا خير محض ونصرة للأمة.

إذن سياق الخبر سواء في أحوال الأمم السابقة، أو أشراط الساعة إنما نعلم الحسن منه والقبيح، والمشروع منه والممنوع من الأدلة الأخرى.

فلا يجوز الاحتجاج بمجرد ذكر الخبر على المدح أو الذم، إلا إذا ورد في سياق المدح أو الذم، و إلا فيجب علينا أن ننظر في الأدلة الأخرى الخاصة بالحكم على هذا الشيء المذكور في الخبر. والله أعلم.

الاستنباط الثاني

من قول الله عز وجل: ﴿سبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، فإن فيها إشارة دقيقة إلى أن ما خلق الله من غير هذين النوعين الأرض والنفس أكثر بكثير مما خلق منهما لأن الله سبحانه قرن الأنواع الأخرى بعلمنا فقال: ﴿وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾، وقد قال في آية أخرى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فعلم أن ما نعلمه قليل، وما لا نعلمه كثير كثير، ومن هنا كان هذا الاستنباط فما أضعف الإنسان وشدة جهله، ثم ما أعجب ذهابه بنفسه فسبحان من بهرت حكمته وقدرته العقول، وأعجز كلامه الفحول من ذوي الألباب والعقول. والله أعلم.

الاستنباط الثالث

وهو متعلق بحديث أبي موسى الأشعري قال: أتيت النبي ﷺ فوجدته يستن بسواك بيده يقول: «**أع أع**» والسواك في فيه كأنه يتهوع . متفق عليه، وفي رواية لمسلم: وقد وضع السواك على طرف لسانه.

فلقد اختلف أهل العلم في إفطار الصائم إذا تقيأ عمدًا، وفي هذا الحديث الصحيح نصرة لمن ذهب إلى عدم إفطار من تقيأ عمدًا من الأكابر – الذين ذهبوا إلى ضعف حديث أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ:«**من ذرعه القيء فلا قضاء عليه ومن استقاء فعليه القضاء**»(١) حيث أعله الإمامان أحمد و البخاري وغيرهما عليهم رحمة الله – ففي حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ إشارة بالإيماء إلى أن التقيؤ العمد لا يفطر الصائم، حيث إنه لو كان كذلك لوضحه النبي ﷺ ،وذلك لأن حديث أبي موسى حديث عام في سواكه ﷺ فلم يذكر هل كان النبي ﷺ صائمًا أم لا.

وإذا علمنا أن النبي ﷺ أرشد الصائم إلى عدم المبالغة في الاستنشاق لوجود المحظور، وهو إمكانية تسرب الماء عبر الأنف إلى الجوف، كما في حديث لقيط بن صبرة: «**وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائمًا**»(٢) فبادر النبي ﷺ إلى بيان ذلك.

وعليه فلو كان التهوع ـ وهو استدعاء القيء وتكلفه ـ يفطر الصائم لما تركه النبي ﷺ بدون بيان. خاصة وأن الحديث عام، وأمر النبي ﷺ عام في السواك في كل الأوقات وجميع الأحيان، ومن جملتها والإنسان صائم، فلو فعل صائم هذا التهوع اقتداء بالنبي ﷺ فقاء فلا يفطر بذلك؛ لأن النبي ﷺ كان يتهوع بسواكه، وتعمد القيء هو استعمال ما يكون سببًا له والسواك من جملة ذلك، ولو كان

---

(١) أخرجه أحمد، وأصحاب السنن، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، والطحاوي، والدارقطني.

(٢) أخرجه أصحاب السنن الأربعة، وابن خزيمة، وابن حبان، وغيرهم، وسنده جيد.

محظورًا للزم ترك التهوع في حال الصيام، كما لزم ترك كثرة الاستنشاق في حال الصيام ولوجب بيان ذلك للحاجة، وهذا لم يقع فيبقى الأمر على عمومه.

بقي أن يقال: إن النية مؤثرة في ذلك، فإن كان المتهوع لا ينوي التقيؤ فلا حرج عليه فنقول: إن الأمر المحظور شرعًا إن كان ثمة ما يفضي إليه، فإنه ينهى عنه تبعًا وإن صلحت النية، كما حدث ذلك في الاستنشاق فهو منهيٌّ عنه، وإن صلحت نية المستنشق، والاستياك متهوعًا هو مظنة التقيؤ العمدي، ومع ذلك لم ينه عنه النبي ﷺ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، والأصل براءة الذمم. والله أعلم.

الاستنباط الرابع

من قول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، فبما أن الأرض هي دار الابتلاء ضرب الله مثلًا افتراضيًّا أنه لو كان الملائكة يمشون على الأرض مطمئنين لابتلاهم الله ببعث رسول منهم، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، فالرسول يكون من جنس المبعوث إليهم، ولما كانت الملائكة من سكان السماء أصلًا، فلو صاروا إلى الأرض لأنزل الله إليهم ملكًا أيضًا من السماء من جنسهم سكنًا وخلقًا، وهذا من حكمة الله عز وجل ورحمته حتى لا يقع الإيمان الجبري، وحتى يتضح المستكبر والمعاند من المتواضع المطيع؛ ذلك لأن الله تعالى يريد من عباده الإيمان الاختياري، ولهذا لم يقبل الله تعالى توبة فرعون لما عاين الموت، وما فيه وعالج سكراته فقال تعالى عنه: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۞ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ يونس [٩٠: ٩٢]،

ولهذا قال النبي ﷺ «**ثلاث إذا جاءت لم ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا: الدابة، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. كما أن في الآية بيانًا لأنواع المشي وأن منه ما هو مطمئن ومنه ما هو بخلاف ذلك.كما قال تعالى:﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، والله أعلم.

الاستنباط الخامس

من قول الله تعالى عن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ:﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣]، فإن في ذلك إشارة إلى عدم طول مكث عيسى ـ عليه السلام ـ في قومه، وذلك في قوله﴿بَعْضَ﴾، فلو كان مكوثه حتى يكمل بلاغه لبين لهم كل الذي يختلفون فيه لا بغضه مصداقًا لقول النبي ﷺ كما في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلًا فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في شجره إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضُها بعضَها، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي. ثم تنكشف وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه هذه. فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه؛**

فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر».

وهذا هو معنى البلاغ المبين الذي أثنى الله تبارك وتعالى به على أنبيائه ورسله، أنهم فعلوه وقاموا به على الوجه الأكمل، ولهذا يأتي النبي يوم القيامة وليس معه أحد ذلك لأن قومه قتلوه قبل أن يُتِمَّ تبليغ دعوة ربه.

ولا يضره ذلك لكونه بلغ ما بوسعه أن يُبَلِّغه ولو تركوه لأتم وبيَّن لهم كل صغير وكبير، أما عيسى ـ عليه السلام ـ فرفعه الله إليه بعد أن مكر به بنو إسرائيل ولكن الله هو خير الماكرين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۞ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۞ بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٦ :١٥٩] فتأمل في قوله تعالى:﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، لتعلم أنه سينزل في آخر الزمان، ليبين لهم باقي ما اختلفوا فيه وهو عيسى ـ عليه السلام ـ.والله أعلم.

الاستنباط السادس

من قول الله عز وجل:﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۞ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف:٤٠، ٤١].

فإن فيها جواز الدعاء على أموال الكافرين المعاندين بعد توجيه الدعوة إليهم بأعيانهم مع تمني زوال النعمة عنهم، وطلب حصولها لنا، وأن هذا ليس

من الحسد في شيء؛ بل هو من صميم عقيدة الولاء و البراء، وقد استجاب الله ـ تعالى ـ دعاء العبد المؤمن، وحقق له أمنيته فيما أراد من زوال النعمة عن هذا الكافر، كما استجاب لموسى ـ عليه السلام ـ في فرعون ـ اللعين ـ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ ۞ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٨، ٨٩] فلله الحمد والمنة. والله أعلم.

الاستنباط السابع

من قول النبي ﷺ في حق عمه أبي طالب: «**ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»، كما في «الصحيحين» واللفظ لمسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال: «**نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**».

وقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فيما أخرجه ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، حدثنا أبو عمرو، حدثنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] قال: الأنداد هو: الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ولولا البط في الدار

لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانًا؛ هذا كله به شرك.

مع نهي النبي ﷺ عن كلمة لو كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال :قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خيرٌ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

فلقد أشكلت هذه النصوص على بعض أهل العلم حتى ظن البعض التعارض فيها، وتوقف البعض الآخر في ذلك حتى إنهم لم يستطيعوا القطع بالجواز في قول لولا، وإسناد الأمر إلى العبد فيما كان العبد فيه سببًا ظاهرًا في حصول الشيء بعد الاتفاق على عدم جواز كلمة لو الاعتراضية.

والاستنباط متعلق بوجه الجمع وتوجيه هذه الأخبار وذلك بالنظر إلى الأسباب من حيث حقيقتها ووهميتها وقطعيتها وظنيتها فمن تأمل ذلك زال عنه الإشكال بحول الله وقوته، واتضح له أن الجمع ممكن ومتيسر، ونحن نبين ذلك بما يظهر لنا، والله أعلم بالصواب وعليه التكلان، فما أصبنا فمن الله وحده لا شريك له، وما أخطأنا فمن أنفسنا و الشيطانِ، واللهُ ورسولُه براء من ذلك فأقول وبالله التوفيق:

إن من الأسباب ما يكون سببًا في ظاهره، فيظن العبد ويتوهم أنه هو السبب الحقيقي والمباشر والوحيد في حدوث ذلك الأمر ويكون الأمر في حقيقته بخلاف ذلك إذ قد تشاركه عوامل أخرى تكون هي الأخرى مؤثرة، و سببًا في حصول الأمر ولكن ولقصر نظر الإنسان، وشدة جهله وظلمه وعدم إحاطته بالأمور يجزم أن ذلك السبب هو الحقيقي والمباشر لحصول الأمر، ومن هنا يكون

المحذور ويقع العبد في المحظور حيث جعل ما ليس بالسبب الحقيقي سببًا بل وجعله هو الوحيد وعول على ذلك في حكمه وهذا من الشرك وعليه يُنَزَّلُ كلام ابن عباس كما سيأتي فإن جعل الشيء في مقام الحصر بكلمة لولا فيه إشارة إلى أنه هو السبب الوحيد لحصول ذلك الأمر ومن هنا يتوجه النهي أيضًا لأن العبد بهذا الاعتبار يكون قائلًا على الله ما لا يعلم ومتبعًا للظن والخرص وكل واحد من هذين الأمرين قد نهى الله ـ عز وجل ـ عنه، فالظن أكذب الحديث قال الله تعالى:﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: ٢٨]، والقول على الله بلا علم من أفحش الأمور وأفظعها، كما قال تعالى:﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

أما إذا تأكد الأمر وتعين جزمًا أن هذا السبب هو الحقيقي والمباشر والوحيد جاز إطلاقه، وساغ عندها استعمال كلمة (لولا) المفيدة للحصر، وعندها يكون الكلام مطابقًا للواقع والخبر موافقًا للحق ومن هذا القبيل قول النبي ﷺ في عمه وعليه يحمل وكذلك ما ورد في الكتاب والسنة مطابقًا لذلك يحمل على هذا المعنى بعينه أيضًا.

بينما في قول العبد لولا كليبة هذا، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، فإننا لا نستطيع أن نجزم بذلك، ولو جزمنا لوقعنا في المحظور؛ فإذا استعمل العبد كلمة لولا فقد حصر وبالتالي يكون قد قارف الممنوع فإن هناك أسبابًا أخرى قد تكون هي الأخرى سببًا؛ بل لربما مباشرًا في حصول الأمر كعمل صالح لصاحب الدار يدفع الله عنه به ويرفع، أو دعاء له من والديه، أو أحد الصالحين، أو حصول عارض ما للص قبل أخذه للشيء بسبب عمل صالح له أراد الله أن يصرفه به عن هذا السوء، وغير ذلك من العوامل المحتملة بنفس درجة الكلب والبط، بل قد

تكون أشد وأقوى، كالأعمال الصالحة مما تكون سببًا في حفظ الله لعبده في نفسه وماله وعرضه وولده، فالقطع والجزم بكلمة لولا، والحالة هذه هو من قبيل الرجم بالغيب، والتخرص واتباع الظن، وهذه كلها محاذير نهى عنها الشارع، كما تقدم ولهذا توجه كلام ابن عباس بالنهي عنها، ولأن هذه المسألة متعلقة بأمور قد تغيب عنا، فهي إذن من قبيل علم الغيب الذي أمرنا الله فيه أن نتبع الحقائق والقطعيات لا الوهميات والظنيات، وبهذا يتم الجمع ويزول الإشكال وبالله التوفيق .

وأما ما جاء عن النبي ﷺ من أنه قال في الحج: «**لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ولم أسق الهدي لتمتعت**»، كما في «الصحيحين» من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي معي حتى اشتريه ثم أحل كما حلوا**» هذا لفظ مسلم.

فإن هذا أولًا تعليق على سبب حقيقيٍّ، فإن المانع فعلًا له من ذلك هو كونه قد ساق الهدي ولا مجال لتركه، لأن هذا وقع وهم في مكة، فلا مجال إلى فسخ ذلك، كما أن ذلك من أنواع الحض والترغيب في الأمر لتنشط النفوس إليه وتطمئن، ولكي لا يحزنوا من كون النبي ﷺ دخل في نسك وهم في نسك آخر وكذلك قوله ﷺ: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**» «متفق عليه»من حديث أبي هريرة. فهي أيضًا من هذا القبيل قد عُلِقَ بسبب حقيقي وهو وجود المشقة.

وعلى هذا فقس فما كان سببًا حقيقيًّا جاز تعليق الأمر عليه وما لم يكن كذلك، أو داخله الظن فالمنع منه متوجه بالأحاديث الدالة على ذلك، هذا بعد الاتفاق على أن هذه الأسباب كلها مخلوقة لله عز وجل، وأن المسبب لها هو الله الواحد القهار، وإنما مدار كلامنا على الأسباب فقط دون الاعتماد عليها أما

الاعتماد عليها، فهذا شرك أكبر يخرج صاحبها من الملة عياذًا بالله من ذلك كما أنه لا يجوز اعتقاد كون الشيء سببا إلا بدليل صريح دال على ذلك، أما التخبط والشعوذة والتحريف والتبديل، فكله باطل لايعول عليه ولا يلتفت إليه «فالأسباب الصحيحة الحقيقية لها شواهد حق دالة عليها، فلا نتخذ من الأسباب ما لم يأذن به الله، كما أن اعتقاد كون الشيء سببًا فيما يتعلق بالأمور الغيبية يحتاج إلى دليل خاص به كذلك . والله أعلم.

الاستنباط الثامن

هذا الاستنباط متعلق بالآيات من سورة النور في قوله الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فَرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

ولكن وقبل الوصول إلى الاستنباط فإننا بحاجة إلى توطئة ومقدمة هامة بين يدي هذا الاستنباط.

فأقول وبالله التوفيق والسداد: في الآية الثلاثين من سورة «النور» أمر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك لأن عدم ذلك مدعاة للزنا وحبل وطريق موصل إليه والعياذ بالله.

والله عز وجل إذا أمر بشيء من الطاعات جعل ما يوصل إليه طاعة وقربة كالصلاة مثلًا فالمشي إليها والوضوء لها والجلوس انتظارًا لها كل هذه طاعات وقربات تكتب في رصيد العبد، وذلك لكي يسهل الوصول إليها، وتنشط النفوس على أدائها لأنها الركن الركين من الإسلام، وبعدمه ينهدم دين العبد ويخرج عن الملة عياذًا بالله العظيم من ذلك.

وكذلك الأمر بالنسبة للمنهيَّات فالزنا لما كان فاحشةً وساء سبيلًا، كان كل ما هو موصل إليه، أو من مقدماته ممنوعًا، واقترافه ليس بمشروع بل مجرد قربه لا يسوغ قال تعالى:﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فلا نظر، ولا لمس، ولا اختلاط، ولا خلوة بالأجنبيات من النساء، ولا سفر بدون محرم، ولا خروج للنساء متعطرات، ولا بدون حاجة ماسة؛ بل هو القرار في البيوت فلا تبرج، ولا كشف للوجه ولا القدمين، ولا خضوع في القول، ولا ارتداء للباس الكاسيات العاريات، ذلك لأن الله جل جلاله خبيرٌ بما يصنع عباده، فإن كل شيء بمقدماته وأسبابه، والله خبير بهم أنهم إن ركبوا المقدمات أوشكوا أن يقعوا في الحرام، ويقارفوا الفواحش، وهذا قليل من كثير مما تحويه هذه الآية من النهي الصريح عن كل مقدمات الزنا عافانا الله منه، آمين!

ثم جاءت الآية التي بعدها، والتي فيها إجمال وتفصيل، وهذا هو

الاستنباط الجميل، وهو حمل الآية وفهمها على حسب ذلك وإليك بيان ذلك: فالجزء الأول منها من قوله:﴿وقُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ هذا الجزء من الآية جاء مجملًا فبعد أن وجه الخطاب للرجال وأوصاهم، توجه هنا إلى النساء بالخطاب العام ليعلم الجميع أن الأمر في غاية الأهمية والوضوح، فهن مأمورات بما أمر به الرجال فيما سبق من الامتناع والابتعاد عن كل ما هو من مقدمات الزنا، أو يوقع فيه من قريبٍ أو بعيدٍ.

ثم ذكر الزينة لأنها أعظم أسباب الفتنة، ففي إبدائها يكمن الخطر، وتتأجج نار الشهوة، فهذا المقطع من الآية فيه نهي عن إبداء الزينة إجمالًا، ولاشك أن الوجه من جملتها، وفيها عموم أيضًا في قوله:﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١] فهذا أمر عام أي: لا يبدين زينتهن لأحدٍ أبدًا حتى المحارم، فنأخذ الآية في أمرها الأول في قوله تعالى:﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ على عمومها وشمولها للمحارم وغيرهم في عدم إبداء الزينة إلا ما ظهر منها من ثياب، وشكل ظاهر لا طريق إلى عدم إبدائه فهذا معفوٌّ عنه، بعد إفراغ الوسع في الحشمة ولبس الصفيق والواسع من الثياب، ثم أمر سبحانه بضرب الخمار على الجيوب، ثم شرع سبحانه في تفصيل ما أجمل وتخصيص ما عمم بالنسبة لإبداء الزينة، فكرر الخطاب بصيغة النهي تأكيدًا على المعنى، ولفتًا للانتباه، وشحذًا للهمم العالية، وردعًا للنفوس الأمارة بالسوء؛ فقال سبحانه:﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: مطلقًا هكذا مرة أخرى، ولكن الأمر في هذه المرة فيه تقييد وتخصيص، فاستثنى من ذلك المحارم رحمة منه وفضلًا، ورفعًا للحرج عن هذه الأمة المرحومة، فلله الحمد والمنة، ولحكم

باهرة عظيمة ليبقى ما دونهم في حيز المنع والحظر، فليس للنساء أن يبدين زينتهن أمامهم مهما كانت صلة القرابة طالما أنهم ليسوا من ذوي المحارم وعلى هذا يحمل قول ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في قوله سبحانه﴿إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال ابن عباس: الوجه والكفان أي: عند المحارم خاصة حيث إنه ـ رضي الله عنه ـ لم يقل: إن ذلك للمحارم وغيرهم، وإنما جاء الكلام عنه مطلقًا، وهذا المطلق نرجع فيه إلى الآية الدالة على أن ذلك مشروع في حق المحارم فقط، ومما يدل على أن هذا هو المتوجه في كلام ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ما قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : «أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عينًا واحدة »[1].

وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] «فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى»[2].

فذكر الله سبحانه المحارم ومن على شاكلتهم بصيغة الاستثناء ليعلم العباد أن الأصل في النساء الاحتشام وعدم إبداء الزينة ثم بين سبحانه بعد ذلك من يجوز للنساء إبداء الزينة أمامهم ومن جملة الزينة الوجه وسائر المفاتن

---

(١) أخرجه إمام المفسرين ابن جرير الطبري في تفسيره على قول الله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورًا رحيمًا﴾.

(٢) ذكره العماد ابن كثير في تفسيره على قول الله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورًا رحيمًا﴾.

التي الوجه أولى منها كلها، فتدرج سبحانه في مدى إمكانية ذلك بالنسبة للمحارم[١] ذلك لأنهم هم أيضًا درجات في ذلك، فبدأ بمن يجوز له أن يطلع على الزينة كلها وجميع المفاتن الظاهرة والباطنة؛ ألا وهو الزوج ثم ذكر سبحانه من هو دون الزوج في ذلك، وهو الأب إذ لا يجوز للمرأة البالغة أن تكشف عن سوءتها وعورتها المغلظة أمام أبيها، ولا أن تتعرى أمامه لا بلبس الضيق ولا بلبس العاري من الثياب، وجاز ما دون ذلك لضعف داعي الشهوة عند الآباء وهكذا بالتدرج حسب ضعف هذه الشهوة، وقوة الدافع على مفارقة الفاحشة على أنه سيأتي على الناس زمان يقع فيه زنا المحارم عياذًا بالله العظيم من ذلك، وذلك يرجع والله أعلم إلى تجاوز بعض المحارم من النساء لحدودهن فيما يجوز لهن أن يكشفنه من مفاتنهن أمام البالغين من المحارم من الذكور تساهلًا منهن في ذلك، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فيقع المحظور عياذًا بالله من ذلك إضافة إلى كثرة الفتن والمغريات، وقلة الإيمان وضعف الوازع الديني وعموم الجهل، ولذلك جاء النهي عن الدخول على الأبوين إلا بعد الاستئذان عمومًا بالنسبة للبالغين، وفي أوقات مخصوصة

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه ، والبيهقي في سننه، جملة من الآثار عن الصحابة والتابعين، الدالة على منع المرأة البالغة أن تظهر شيئًا من مفاتنها عند محارمها، سوى زوجها، وأنه ليس لها أن تلبس الضيق من الثياب، وما يصف حجم أعضائها وبشرتها أمام محارمها، وأنه لاحرج من كشف اليدين والوجه، واختلفوا في الشعر، ونقل الإمام ابن عبد البر في التمهيد وابن حزم في المحلى، وابن كثير في التفسير، والنووي في شرح مسلم، والشوكاني في نيل الأوطار، وغيرهم كلام الأئمة في ذلك فليراجع، فإنه نافع ومفيد لاسيما في هذا الزمان الذي تهاون فيه النساء في مسألة ستر العورة أمام الأجانب، ناهيك عن المحارم، ومن العجائب أن كثيرًا من الصالحات بدأن يكشفن عوراتهن أمام محارمهن، بدعوى أن هذا أخوها، وهذا عمها، وهذا خالها متناسين الضوابط الشرعية في ذلك؛ بل وبعضهن هداهن الله لا يتورعن من لبس الضيق من الثياب الذي يحجم أعضائهن، أو يكشف نحورهن وسيقانهن أمام محارمهن سوى أزواجهن، وأعجب من ذلك استنكارهن أن يأمرهن أحد بعدم ذلك، وهذا من غربة العلم بين المسلمين اليوم، حتى على مستوى بعض الصالحين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

بالنسبة للذين لم يبلغوا الحلم كما هو موضح في الآية الكريمة من نفس سورة النور هذه التي نحن بين يديها وذلك في الآيتين (٥٨، ٥٩).

ونعود إلى الآية فما زال التدرج مستمرًّا حتى يصل إلى مرحلة لا يجوز معها إبداء شيء من الزينة سوى الوجه والكفين، كملكة اليمين والتابعين غير أولي الإربة ونحو ذلك .

وهنا دقيقة وهي: أنه سبحانه بدأ بالتدرج في الأقارب والأرحام من المحارم تبعًا لدرجة إمكانية إبداء الزينة ثم بدأ بالأباعد ممن لهم حكم المحارم من حيث إبداء الزينة فبدأ بأشدهم، وهم ملكة اليمين حتى انتهى بأخفهم الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، كما بدأ هناك بالزوج الأكثر حظًّا في إبداء الزينة أمامه، والله أعلم.

ولاشك أن رأس الزينة والفتنة الوجه، فهن مأمورات بعدم إبدائه لشمول الآية له من باب أولى، فإذا كان النبي ﷺ يأمر النساء بإطالة الثياب حتى تغطي الأقدام إلى ما تحت الكعبين بمقدار شبر، ثم تطلب أم سلمة المزيد من الحشمة والعفاف والتستر فتقول: إذن ينكشفن يا رسول الله فيقول الرسول ﷺ: «**إذن يرخين ذراعًا ولا يزدن**»[1] فإن كان هذا هو الحرص والاحتياط من الشارع الحكيم في إبداء الأقدام التي الفتنة بها أقل بكثير من الوجه الذي هو محل الجمال، ومحط أنظار الخطاب من الرجال، و مكان السهام المسمومة من عيون ذئاب الرجال، وعلمنا مدى تشوف الشارع وتطلعه إلى منع ذلك علمنا أنه من باب أولى دخول الوجه في عموم الأمر بالستر، وعدم الإبداء ولا يقول قائل: إن هذا

(١) أخرجه أحمد، والترمذي، وعبد الرزاق في «مصنفه» عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد، والنسائي، والطبراني، وغيرهم من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ . وسند الحديث صحيح في أكثر طرقه.

مما نقف فيه على ما ورد ولا نتعداه فالنص جاء في الأقدام ولم يأت في الوجه فنقول: بل قد ورد في الوجه أحاديث، وآيات تأمر بتغطيته وستره عن أنظار الرجال الأجانب فمنها آية الحجاب الموجهة إلى نساء النبي، و إلى عموم النساء من بعدهن فهن القدوة، وكذلك حديث عائشة في حادثة الإفك عند مسلم وذلك عندما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لما رأت صفـوان بن معطل ـ رضي الله عنه ـ: فسدلت جلبابي على وجهي وكان يعرفني قبل نزول آية الحجاب. وهذا صريح في الدلالة على أن تغطية الوجه من جملة الحجاب المأمور به، وكذلك حديث فاطمة بنت المنذر أنها قالت: كنا نخمّر وجوهنا ونحن محرمات، ونحن مع أسماء بنت أبي بكر الصِّديق.أخرجه مالك بسند صحيح في «الموطأ».

وهذا يدل على أنها كانت تفعله هي، والنساء[1]معها وغير ذلك من

(١) ذكر شيخ الإسلام ، الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في منهاج السنة: (اتفاق المسلمين على منع خروج النساء سافرات الوجوه لأن النظر مظنة الفتنة) ونقل النووي في روضة الطالبين (٥/ ٣٦٦) عن الإمام الشافعي (اتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات) كما نقل ـ رحمه الله ـ عن الإمام الجويني إمام الحرمين (اتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات) روضة الطالبين (٧/ ٢١). وحكى الإمام العلامة أحمد بن حسين بن رسلان الشافعي المتوفى سنة ٨٤٤ هـ : (اتفاق المسلمين على منع النساء أن يخرجن سافرات الوجوه، لاسيما عند كثرة الفساق) نقله الشوكاني في نيل الأوطار (٦/ ١٣٠).

وحكى العلامة السهانفوري المتوفى سنة ١٣٤٦ هـ في «بذل المجهود» (١٦/ ٤٣١): (اتفاق المسلمين على منع النساء أن يخرجن سافرات الوجوه، لاسيما عند كثرة الفساد وظهوره).

وقال العيني في عمدة القاري (٢٠/ ٩٨) في فوائد حديث عائشة: (أن أفلح أخا أبا القعيس جاء يستأذن عليها، وهو عمها من الرضاعة بعد أن أنزل الحجاب... الحديث: (فيه أنه لا يجوز للمرأة أن تأذن للرجل الذي ليس بمحرم لها في الدخول عليها، ويجب عليها الاحتجاب منه بالإجماع). وقال الشيخ محمد بن سعيد البوطي في رسالته: (إلى كل فتاة تؤمن بالله) ص ٤٥: (وهكذا فقد ثبت= =الإجماع عند جميع الأئمة سواء من يرى منهم أن وجه المرأة عورة كالحنابلة ، أو من يرى منهم أنه غير عورة كالحنفية والمالكية ـ أنه يجب على المرأة أن تستر وجهها عند خوف الفتنة بأن كان من حولها من ينظر إليها بشهوة، ومن الذي يستطيع أن يزعم بأن الفتنة مأمونة اليوم، وأنه لا يوجد في الشوارع

الأخبار الدالة على ذلك، ونساء الصحابة والتابعين هن أعرف الناس بأحوال النساء، وأفهم للآيات وأعلم بمراد الشارع الحكيم.

من ينظر إلى وجوه النساء بشهوة) انظر: عودة الحجاب للمقدم (٣/ ٤٠٨) تنبيه: ثبت عند الحنفية والمالكية أن وجه المرأة عورة.

وقال سماحة الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز في كتابه (مجموع فتاوى ومقالات متنوعة) (٥/ ٢٣١) (وقد أجمع علماء السلف على وجوب ستر المرأة المسلمة لوجهها، وأنه عورة يجب عليها ستره إلا من ذي محرم).

وقال سماحة مفتي باكستان الشيخ محمد شفيع الحنفي في المرأة المسلمة (ص٢٠٢): (وبالجملة فقد اتفقت مذاهب الفقهاء وجمهور الأمة على أنه لا يجوز للنساء الشواب كشف الوجوه والأكف بين الأجانب، ويستثنى منه العجائز، لقوله تعالى: ﴿والقواعد من النساء﴾.

وقال الإمام المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير في الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم (١/ ٢٠٢): (وأجمعوا على وجوب الحجاب للنساء).

وقال العلامة بكر أبو زيد: (ولم يقل أحد في الإسلام بجواز كشف الوجه واليدين عند وجود الفتنة ورقة الدين، وفساد الزمان، بل هم مجمعون على سترهما كما نقله غير واحد من العلماء، وهذه الظواهر الإفسادية قائمة في زماننا فهي موجبة لسترهما لو لم يكن أدلة أخرى) [الحراسة:ص٦٩].

وقال الشيخ يوسف الدَّجوي: (أما إذا خشيت الفتنة ولم يؤمن الفساد فلا يجوز كشف وجهها ولا شيء من بدنها بحال من الأحوال عند جميع العلماء) [مقالات وفتاوى الدجوي ٢/ ١٤٣].

كما قرر بعض الأئمة الإجماع العملي على ذلك، فقد حكى الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٣٣٧): (استمرار العمل على جواز خروج النساء إلى المساجد والأسواق والأسفار منتقبات؛ لئلا يراهن الرجال ... إلى أن قال: إذ لم تزل الرجال على ممر الزمان مكشوفي الوجوه، والنساء يخرجن متنقبات) وبمثله حكاه العيني في عمدة القاري (٢٠/ ٢١٧) وقال الحافظ أيضًا (٩/ ٤٢٤): (ولم تزل عادة النساء قديمًا وحديثًا يسترن وجوههن عن الأجانب) وقال الغزالي في إحياء علوم الدين (٢/ ٥٣): (.. لم يزل الرجال على ممر الأزمان مكشوفي الوجوه، والنساء يخرجن متنقبات..).

قال الشيخ بكر أبو زيد: (لما نزلت هذه الآية حجب النبي صلى الله عليه وسلم نساءه وحجب الصحابة نساءهم بستر وجوههن وسائر البدن والزينة المكتسبة واستمر ذلك في عمل نساء المؤمنين، هذا إجماع عملي دال على عموم حكم الآية لجميع نساء المؤمنين) [حراسة الفضيلة:ص٤٠] وقال الموزعي الشافعي في تيسير البيان لأحكام القرآن (٢/ ١٠٠١): لم يزل عمل الناس قديمًا وحديثًا في جميع الأمصار والأقطار، فيتسامحون للعجوز في كشف وجهها، ولا يتسامحون للشابة، ويرونه عورة ومنكرًا..). وقال محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط (٧/ ٢٤٠): (.. وكذا عادة بلاد الأندلس لا يظهر من المرأة إلا عينها الواحدة).

(ومما يجب التنبيه عليه والتنبيه له أن كثرًا من أصحاب التجارات اليوم أصبحوا يستعملون الصور في الدعاية والتسويق لا سيما صور النساء، والسؤال الذي يطرح نفسه من الذي قال بجواز النظر إلى صور النساء، عبر الشاشات والإعلانات؟! فالذين قالوا بجواز كشف المرأة لوجهها وكفيها لم يأذنوا بالنظر إلى ذلك ولا عرضه على الآخرين فضلًا عن فتنة الناس بذلك في صور فاتنة تتجمل فيها النساء بإظهار الزينة في أصرخ صورها والعياذ بالله من ذلك، كيف والله تعالى يقول: ﴿ 🕭➔✍ ◉ඉ𝑒ᔕ⌧◘☺←⬧⬃✌ᔕ☪ᔕ✓▫☙
③⧫⬄⬈ᔕ❻❑✁☎ ✌ᔕ⌶⇳ 🕮❒🖃⬀🕙✽🕙❷⌧♎ᔕ💣⇳
▫➔❷⬉❒♉⌧♑←🏳⬄ 🗐
❶⬧🕙◙♑ᔕ⌧⌨ 🕮❒♾⬂🗁⬧❼🗐 ▭❍●←☠⬀ 🗏 ◗ᔕ♌ᔕ❑
✁⌫✐⅄ ⌘⌧⌨ᔕ❷❸⌨ 🖃ᔕ☺⌧⌫ ③⧫🕙⬄✡❑➔⬉❑♌⧫
⬀☞⌧⬅ ❑⧫🕭➔✍ ◉ඉ𝑒ᔕ⌧◘☺←⬧⬃✌ᔕ☪⧫🕙💣ᔕ
③⧫⬄⬂ᔕ➔ᔕ⇳⌶⌘ ✌ᔕ⌶⇳ 🕮❒🖃⬀🕙✽🕙❷⌧♎ᔕ⌶❍
❒⧫⑥⬧⬂⬂⌧➔⇳⌶⌘ ▫➔❷⬉❒♉⌧♑←⌶❍ ﴾ الآية (٢٩_٣٠).

إن هذا الفعل المشين من أعظم الخلط الرهيب الذي وقع من جراء تجويز كشف وجه المرأة والتساهل في التصاوير وشأنها.والله المستعان.

الاستنباط التاسع

من حديث النبي ﷺ حيث قال: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم،**

وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

والاستنباط متعلق بقوله ﷺ: «**وإذا شيك فلا انتقش**» مع بيان معنى الشوكة في هذا الخبر .

فإن عامة من فسرها من أهل العلم حمل معنى الشوكة هنا على أنها دعاء منه ﷺ على هذا الصنف من الناس جزاء وفاقًا.

ولكن ثمة معنى آخر لطيف، وهو حمل هذه الجملة على الإخبار عن واقع الحال؛ لهذا الصنف من العباد، فيكون معنى قوله:«**فإذا شيك فلا انتقش**» أي أن هذا العبد ـ ولشدة غرقه واستغراقه في الحياة الدنيا وملذاتها وشهواتها فَعَبَّ منها حتى الثُّمَالَة ـ مستغرق في غفلته حتى صار عبدًا لحطامها الفاني الزائل من دينار ودرهم وخميصة وخميلة، وما شابه ذلك فأصبح يأتمر بأمرها وينتهي عن نهيها يحب فيها، ويبغض فيها، ويوالي فيها، ويعادي فيها، وهو في خضم هذا السيل الجارف تجرف دينه البلايا والفتن والشبهات المتلاطمة؛ التي أحاطت به من كل مكان، وهذه هي الشوكة المذكورة في الحديث. فواقعه أنه أسير دنياه غارق فيها فلا يكترث لهذه الشوكات التي تصيبه أثناء جريه الحثيث وراء هذه الحياة الدنيا، فمنها الكبير المهلك، ومنها الصغير المردي فلربما أشرك أو كفر أو نافق أو فجر أو فسق أو قال الهجر، المهم

أنه ليس لديه وقت ليقف مع نفسه ليراجع دينه، ويحتاط لأمره لشدة غرقه وانغماسه في الدنيا، فإذا شيك فلا انتقش، فليس عنده وقت ليقف ليخرج هذه الشوكات من قلبه ودينه فيهلك ويصدق عليه الحديث النبوي: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنًا، ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا، ويصبح كافرًا يبيع دينه بعرض من الدنيا**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ .

فالشوكة هي الفتن والبلايا التي تصيب العبد في دينه وإيمانه فأما العبد الصالح فينفيها عن نفسه واقفًا على ثغرة باب قلبه يدافع عن دينه وإيمانه والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، أما الآخر فلا وقت لديه للاستبراء لدينه، وتنقية قلبه من هذه الشوكات، فصار عبدًا للدنيا والعياذ بالله. والله أعلم.

الاستنباط العاشر

من قول الله تعالى عن فرعون في جداله مع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ورد موسى ـ عليه السلام ـ عليه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۞ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۞ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ١٨: ٢٠] .

فيها دلالة واضحة على أنه ليس من أسلوب الدعوة إلى الله، ولا من الحكمة فيها أن ينكر الداعية الخطأ الثابت عليه خاصة لدى من عاين

الخطأ، ووقف عليه بنفسه وعرفه من الداعية، وأن الأجدى في مثل هذه الحالة ـ حسب توجيه الآية الكريمة أنه وبدلًا من إضاعة الوقت في جدل بيزنطي لا طائل من ورائه ـ أن يعترف العبد بالذنب، ويذكر نعمة الله عليه ويعترف بخطئه وزلـله أمام المجادل، وإرجاع الأمر إلى الرحيم الرحمن الذي تداركه برحمته، وأنقذه من سبل الغواية والضلال إلى صراط الله المستقيـم كما قـال الله تعالى:

﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْـلُ فَمَنَّ الله عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤].

مع استغلال ذلك في الدعوة إلى الله تعالى في مثل هذا المقام، وذلك بأن يقول لمن ذكَّره بماضيه السيئ: نعم كنت كذلك وتجرعت مرارة العصيان، وعايشت إظلام القلب وضنك العيش والهم والغم من جراء البعد عن الله تعالى. فلماذا تريد أن تكرر نفس هذه التجربة القاسية؟! أليس من العقل والحكمة أن تبدأ من حيث انتهى من سار هذا الدرب وسبر غوره وعلم عظيم ضرره وخطره؟

فهذا أجدى في الدعوة وأقطع لحجة المجادل وأقرب إلى الحق و أرحم و أهدى للخلق. والله أعلم.

مع ملاحظة الفارق بين حال موسى ـ عليه السلام ـ كليم الرحمن وحالنا فإن موسى غاية ما وقع فيه أنه قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها مع أن موقفه كان موقف نصرة، ودفع ظلم واستكبار كان قد استعلى به الأقباط على بني إسرائيل، ومع هذا لم ينشغل موسى ـ عليه السلام ـ بالتعذير عن نفسه والدفاع عن موقفه وفعلته بل باشر الأمر الأنفع والأجدى فكيف

بمن يقع في الذنب على علم وبصيرة وإصرار؟!

فالله المستعان. والله أعلم.

الاستنباط الحادي عشر

من قوله تعالى:﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ الله هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ الله إِنَّ الله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٤٩، ٥٠].

فإن في هذه الآية إشارة بالإيماء إلى أنه ستكون هناك كتب ستوضع، هي من عند غير الله وأن الطواغيت سيحرصون على وضع مثل هذه الكتب ليضاهئوا بها شرع الله عز وجل في حين أنها من حثالات الأفكار، وزبالات الأذهان، وسيكون هذا من صنع الذين يتبعون أهواءهم ليضلوا الناس ليكونوا سواء بسواء، فلا يجد أهل الأهواء والضلالات من ينكر عليهم لانتكاس المفاهيم، واتباع الشياطين وتنحية شرع رب العالمين الذي أنزله ليحكم الناس أجمعين.

ولذلك قيدت الآية الكريمة الكتاب بأن يكون من عند الله، وأما ما سواه من الكتب أو الدساتير، فهو كفر وضلال وإلحاد وزندقة، والمشاهد في واقع الأمة ظهور أمثال هذه الكتب ففي السابق ظهر «الياسق» أيام التتار من قبل جنكيز خان الذي جمعه من دين اليهود والنصارى والمجوس وشيء من

الإسلام، ثم سلطه على رقاب العباد والبلاد أن يحكموا به ويعملوا بمقتضاه، ويضربوا بيد من حديد على كل من تسول له نفسه الخروج على النظام، أو حتى عدم امتثاله في أية صورة من صوره، فأجمع العلماء على كفره وردته عن الإسلام، كما نقل هذا الإجماع الإمام العماد ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» وكذلك اليوم فما أكثر أمثال هذا «الياسق» في عالم اليوم متمثلًا في تلك الكتب التي تشرع للناس، وتضع لهم القوانين والنظم التي تدعو الناس إلى الإلحاد متمثلة في كتب القوانين الوضعية والعقلية كما يزعمون، وفي كتب الأصنام الجدد المتمثلة في الأسماء البراقة الجذابة، والتي يدعون الناس إليها والعمل في إطارها كالإنسانية والوطنية، والكتاب الأخضر والعقد الاجتماعي، والتجديد والتطور، وأمثالها مما تفوح منها روائح الإلحاد والزندقة، بل هي كذلك والعياذ بالله منها، وهم في ذلك يحتجون بحجة واهية هزيلة متهالكة؛ فقال الله عز وجل في نفس السورة ـ رادًّا على هذه الحجة الواهية التي يلقيها أمثال هؤلاء ـ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

فهذه سنة جارية في بيان حجة واهية يعترض بها المتبعون لأهوائهم أنهم لم يتركوا كتاب الله وشرعه إلى غيره رغبة عنه، أو زهدًا فيه، أو استكبارًا عليه، وإنما هو الخوف من أن يتخطفوا فتزول مراسيمهم وأبهتهم ومناصبهم وملكهم ورياساتهم، وهذا هو نفس لسان حال القوم اليوم أنهم يقولون: إن طبقنا شرع الله على الوجه الذي يرضي الله قامت علينا دول الكفر التي تحيط بنا من كل مكان، ولا سبيل إلى تطبيق الشرع في مثل هذه الحالة، قال تعالى:

[illegible] [المائدة: ٥٢]، والمعنى أنه لا مانع من أن يطبقوا شرع الذين لا خلاق لهم حتى نكف شرهم، ويتحقق لنا الأمن والاستقرار، ولعلهم أن يكونوا وسدنتهم على مرتبة من الفقه المزيف، فيذهبوا إلى أن هذا من فقه الضرورة الحتمية الواقعية، وأن هذا من فقه الواقع ـ زعموا ـ الذي يجب التعامل معه وبه!!، فهذه الآية ترد عليهم وتهد بنيانهم من القواعد، وتدمر أركان حجتهم حتى يخر السقف عليهم من فوقهم فإن حقيقة الأمن والتمكين إنما تكون، وفقط تكون إذا طبقت الأمة شرع الله، وكان القائد لها هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ أما شأن الكافرين فهو على الله هين ويسير؛ فقط علينا أن نعمل على إقامة شرع الله في أرضه وخلقه، فنعمل على إرضاء ربنا، وإن أرغى وأزبد كائنًا من كان فإن التهلكة الحقيقية والضلال والبوار والدمار والشقاء والتعاسة؛ إنما هي في تبديل الشرائع ولذلك لفت الله عز وجل في هذه الآية إلى حال النبي ﷺ في أول الدعوة مع أصحابه أولئك النفر القليل، ودول الأرض قاطبة على الضلال يرمونهم عن قوس واحدة، ولكن مكن الله لنبيه،

ومن معه من المؤمنين فصار الحرم آمنًا منارًا للمؤمنين، ومهوى أفئدتهم لما قام شرع الله بين العباد ليبقى هذا الحرم شاهدًا عظيمًا ومثلًا شامخًا لنصرة الحق لأوليائه المتقين يذكُرُه من بعدهم كلما نظروا إليه ليَحُصل اليقين، ويبدأ العمل الجاد لهذا الدين ونصرته، ولذلك ساق سبحانه وتعالى بعدها الآية التي تدعو إلى النظر والاعتبار بأحوال الأمم السابقة التي بطرت معيشتها، وبدلت شرائع ربها بعد أن أرسل الله إليهم الرسل، وأنزل معهم الكتب والشرائع التي يحصل بها صلاحهم وأمنهم، والتمكين لهم والاستقرار إن طبقوها، فلما ظلموا بها ونبذوها وراء ظهورهم جرت عليم سنة الله التي لا تحابي أحدًا ولا تجامل أحدًا، فلا تتغير ولا تتبدل من أجل نسب، أو مال، أو جاه، أو سلطان، أو عشيرة، أو قبيلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، فهذه السنة هي الحق المطلق المبين ولهذا قال تعالى بعد ذلك مباشرة :﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ ۞ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٧ ـ ٥٩]. والله أعلم.

الاستنباط الثاني عشر

من قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ

خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] فإن في جعل المدة التي لبثها نوح ـ عليه السلام ـ في قومه، وهو يدعو قومه تسعمائة وخمسين عامًا دلالة واضحة على عظيم الحكمة والتدبير الإلهي، فكل شيء بقدر لا يتجاوزه، كما أن في ذلك دلالة على وحدانية الله عز وجل في تصريفه للأمور، فلو كان فيهما آلهة أخرى لقال قائل: لم لا تكون المدة ألف سنة كاملة؟ ولكنها الحكمة والقدرة والتدبير الإلهي لله الواحد الأحد الصمد، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فكل شيء عنده مقدر ومكتوب، فهي تسعمائة وخمسون عامًا فقط، وليست ألف عام، فالأمور ليست خبط عشواء وتضخيم أرقام؛ بل هي مشيئة الله الواحد القهار الذي قال ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۞ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨، ٩] .

ففي كـل شيء له آيــة تدل على أنه الواحــد

والله أعلم.

الاستنباط الثالث عشر

من الحديث الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن نتكلم به قال: «**وقد وجدتموه**» قالوا نعم قال: «**ذاك صريح الإيمان**» ـ وفي رواية ابن مسعود لما سأل النبي ﷺ عن الوسوسة: «**قال: تلك محض الإيمان**» أخرجهما

مسلم في «صحيحه» .

والاستنباط متعلق بقوله ﷺ: «**ذاك صريح الإيمان، تلك محض الإيمان**» فإن فيهما معنيين :-

المعنى الأول : - أن هذا إنما هو من صريح الإيمان لكون العبد يرده ولا يقبله، فهو في مجاهدة ومدافعة لعدوه اللدود الذي يدعوه إلى أن يكذب بالحق، في حين أنه يوعده بالشر، وهذا المعنى ذكر مثله الخطابي رحمه الله تعالى وغيره.

المعنى الثاني :- وهو موضوع هذا الاستنباط أن الشيطان يلقي على الإنسان بعض الشبه التي تحتاج في دفعها إلى حجج قوية، وبراهين ساطعة ظاهرة، وهذا لا يأتي إلا بكثرة النظر في الأدلة من الكتاب والسنة، ومعرفة قدرة الله على الإعجاز العلمي مثل عجائب علم الأجنة، ودلائل الكون وغرائبه المختلفة، وما في باطن الأرض من أوتاد الجبال، وما في باطن البحار من أسرار المخلوقات، ومعجزة وأعجوبة البرازخ التي بين البحار إلى غير ذلك من الحقائق التي ذكرها الله عز وجل ـ الخالق الخبير بما خلق ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] ـ في كتابه وعلى لسان رسوله ـ ذلك النبي الأمي الذي علم المتعلمين اليتيم الذي بعث الأمل في قلوب اليائسين الذي بعث في قوم يعيشون جاهلية جهلاء، وفي وسط صحراء نائية جرداء بعيدًا عن العلوم والحضارات صلوات ربي وسلامه عليه ـ فجاءهم بعجائب وأسرار المخلوقات والعلوم التي لم يعرفها أحد من قبل، والتي أدرك منها أهل هذه القرون المتأخرة النزر اليسير على الرغم من هذا التقدم العظيم، والرقي في نواحي العلم والمادة، فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا، وأعطى

كل شيء خلقه ثم هدى .

فهذا النظر وذلك الاستدلال ينفي تلك الشبهات، ويبدد تلك الظلمات، فإذا هو بنور الإيمان يسطع في وجهه، ويخر أمامه بنيان الباطل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، فينتج عن ذلك صريح الإيمان الذي تتلاشى أمام شموخه أمواج الشبهات المتلاطمة التي يجلب عليه بها عدوه اللدود إبليس أعاذنا الله منه، ومن شره وشركه.

ولكن على العبد في هذه الحالة أن لا يتكلم بذلك، بل يكون أمر الشيطان عنده أحقر من أن يتكلم به، فلا يدعه يعدو أمره الوسوسة، وهو في ذلك مكذب له باحث عن اطمئنان قلبه.

ووجدت فيما بعد قولًا للمازري ذكره المعلق على الزاد لابن القيم في الجزء الثاني أنقله للفائدة قال المازري:(الخواطر على قسمين: فالتي لا تستقر ولا تجلبها شبهة؛ هي التي تندفع بالإعراض عنها، وعلى هذا ينزل الحديث ـ يشير إلى حديث عثمان بن العاص عند مسلم في وسوسة الشيطان خنزب ـ وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة، وأما الخواطر المستقرة الناشئة عن الشبهة، فهي التي لا تندفع إلا بالنظر والاستدلال) .اهـ . وهذا القدر يشهد لما بيناه سابقًا، فلله الحمد والمنة.والله أعلم.

الاستنباط الرابع عشر

من قوله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨] فإن في هذه الآية إشارة إلى أن النهي عن قتل النمل كان موجودًا في الشرائع السابقة، كما هو منهي عنه في الشريعة المحمدية، كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال :

«نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة، والنحلة، والهدهد، والصُّـرَد».

والإشارة في الآية هو في قوله تعالى:﴿وهم لا يشعرون﴾ فإن تعليق الأمر بعدم شعورهم يوحي بأنهم معذورون، وغير مؤاخذين في ذلك لعدم شعورهم، ومن مفهوم المخالفة، أو لازم الآية أنهم لو كانوا يشعرون لما جاز لهم ذلك، ومما يبين ذلك أن الحيوانات هي الأخرى قد تعلم أنه قد نهي عن قتلها، ويشهد لذلك الحديث الذي في إسناده لين الذي أخرجه النسائي، وابن حبان في «صحيحه» من حديث الشريد ـ رضي الله عنه ـ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قتل عصفورًا عبثًا عجَّ إلى الله عز وجل يوم القيامة يقول:يا رب، إن فلانًا قتلني عبثًا ولم يقتلني لمنفعة**» فكونهم لا يشعرون هو عذرهم في ذلك.والله تعالى أعلم.

الاستنباط الخامس عشر

لقد شرع النبي ﷺ لأمته أن يقرءوا في ركعتي الفجر[١] بالآية من سورة البقرة في الركعة الأولى:﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وفي الركعة الثانية بالآية من سورة آل عمران:﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤] .

أو أن نقرأ في الركعة الأولى من الفجر بسورة (الكافرون) وفي الثانية بسورة (الإخلاص)[٢] .

وكان ﷺ لا يدع ركعتي الفجر لا حضرًا ولا سفرًا[٣]، كما أنه شرع لأمته قراءة سورة (الكافرون) في الأولى وبـ (الإخلاص) في الثانية في ركعتي الطواف[٤] خلف المقام والسبب في ذلك والله أعلم أن إيمان العبد وإسلامه واستسلامه الحقيقي لله عز وجل لا يكون إلا إذا آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بكل ما يعبد من دون الله، ويتبرأ من كل من يشرك بالله أو يناصبه العداء، ويبارزه بالعصيان والكفر والفجور، وهذه هي ملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه، ولما كانت النفوس تتقاعس عن تحمل هذه الأمانة

---

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت:«صلى النبي صلى الله عليه وسلم العشاء، ثم صلى ثماني ركعات وركعتين جالسًا، وركعتين بين النداءين، ولم يكن يدعهما أبدًا»، وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت:«لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشد منه تعاهدًا على ركعتي الفجر».

(٤) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما.

والقيام، بها ولما كانت القلوب تصدأ من كثرة الغفلة والإمساس الذي يفقد العبد الإحساس بهذه المسئولية، وتلك الأمانة ولكثرة نسيان الإنسان وجهله، شرع لنا أن نتذكر هذه الحقيقة في كل يوم إذا أصبحنا وإذا أمسينا ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، حتى لا يطول علينا الأمد فتقسوا قلوبنا فنكون كأهل الكتاب الذين قال الله عنهم ناهيًا إيانا من أن نكون مثلهم:﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]

والمتأمل لحال الناس اليوم يرى تميعًا ظاهرًا في عقيدة الولاء و البراء، وفهمًا خاطئًا لحقيقة الإيمان، فيظن البعض أنه يكفي في الإيمان بالله إفراده بالعبادة، ولو لم نكفر بالطاغوت، وهذا بسبب عدم التدبر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فهذه نصوص الكتاب والسنة جاءت داعية الناس إلى الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

وإن في تكرار هذه الآيات في هذه الأوقات، وفي مجامع الناس في الحج والعمرة دعوة صريحة إلى التأمل والتدبر فيها، والعمل بمقتضاها، ولأن هذه هي حقيقة الإسلام؛ شرع لنا أن لا ننساها وأن نذكرها على كل الأحوال، فإذا كنا في مجامع الناس في الحج أو العمرة تذكرنا هذه الآيات، وأن علاقتنا بالناس إنما تقوم على أصل معنى وحقيقة لا إله إلا الله، وهي الإيمان بالله والكفر بالطاغوت أيًّا كان ذلك الطاغوت بشرًا كان أو حجرًا دستورًا كان أو نظامًا حتى ولو كان أكثر الناس على خلاف ذلك للزم البراءة من الأكثرين الذين هم دائمًا على الضلال كما قال تعالى:﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله﴾ [الأنعام:١١٦]، ولهذا قال تعالى موضحًا حقيقة الاستمساك بالعروة الوثقى التي

هي لا إله إلا الله محمد رسول الله:﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فمعنى الاستمساك إذن: أن لا نتخذ مع الله أندادًا لا في عبادته ولا في حكمه، ولا في أمره ونهيه، وأن نتبرأ ممن فعل ذلك وأن ندعو الناس إلى ترك ذلك، وأن لا نطيع من فعل ذلك لأنه مُعادٍ لله، ومناهض لحكمه وشريعته، وجميع هذه المعاني جاءت في سورتي «الكافرون، والإخلاص» وفي آيتي البقرة، وآل عمران، ولذلك شرع لنا قراءتها في الصباح في أول النهار حتى ترسخ قضية الإيمان، وتتعمق جذورها، وتتأصل في نفوس العباد، فتحيا القلوب، ويقوم الدين، وينتصر المسلمون، وما نحن فيه اليوم من الذل والخور والجهل والتخلف، إنما سببه الجهل بهذه الحقيقة العظيمة.

وتأمل قول إبراهيم لقومه لتعرف عظيم هذه المسألة قال تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۞ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦ـ٢٨].

وقوله تعالى:﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ ۞ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وقوله تعالى:﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

إلى غير ذلك من الآيات. والله أعلم.

الاستنباط السادس عشر

من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عند أحمد، وأبي داود، والترمذي في« السنن» وصححه الترمذي، وابن حبان، وهو عنده أتم سياقًا منه، ولفظه: قال النبي ﷺ «**أتاني جبريل فقال: أتيتك البارحة فلم يمنعني أن أكون دخلت إلا أنه كان على الباب تماثيل وكان في البيت قرام ستر فيه تماثيل وكان في البيت كلب، فَمُرْ برأس التمثال الذي على باب البيت يقطع فيصير كهيئة الشجرة، وُمُرْ بالستر فليقطع فليجعل منه وسادتان منبوذتان توطآن، وُمُرْ بالكلب فليخرج**» ففعل رسول الله ﷺ وفي رواية النسائي «**إما أن تقطع رءوسها أو تجعل بسطًا توطأ**».

فإن في هذا النص دلالة على أن الإنسان إذا قام بقطع رأس التمثال أن ذلك يزيل المحظور، وتتمكن الملائكة من دخول ذلك البيت؛ لأنه قد صار

مثل الشجرة التي لا روح فيها وقد ألحق أهل العلم بذلك الصورة المطبوعة، أو المنقوشة والصور الفوتوغرافية، فقالوا: يكفي فيها طمس الوجه مع أن الذي يظهر أن الأفضل في المنقوشة على قرام، وما شابه ذلك أن تهتك وتقطع وتتخذ وسائد توطأ، كما جاء بذلك الحديث الصحيح من أمر جبريل ـ عليه السلام ـ للنبي ﷺ أن يفعل ذلك بالقرام الذي كان في منزله يستر به سهوة له ومنه ما جاء في «الصحيحين» عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخل علي النبي ﷺ، وفي البيت قرام فيه صور، فتلون وجهه، ثم تناول الستر فهتكه وقال: «**إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور**».

والذي حملنا على هذا التفريق أن الأحاديث قد جاءت مفرقة بين الأمرين، فطريقة إنكار الأولى: أن يقطع رأسها، أما الثانية: فتقطع كلها إذن فالواجب في جميع الصور أن تكون مهانة وهذا ـ والله أعلم ـ لأنه ما من شيء كان في يوم من الأيام سببًا موصلًا إلى الشرك الأكبر والجرم الذي لا يغفر إلا حرمه الله تعالى، ووضعه وما ذلك إلا لعظم أمر الشرك، ولهذا سد جميع وسائله القديمة والحديثة سدًّا للذرائع، وبعدًا عن الافتتان بذلك.

وكما هو معلوم أن أول شرك حصل في الأرض كان بسبب التصاوير والافتتان بها؛ كما في «صحيح البخاري» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ أمَّا، ودٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، ثم سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع؛ أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى

الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عبدت».

أما الاستنباط الذي نحن بصدده فهو أن هذه الأحاديث الدالة على الأمر بالتخلص من الصور، وإهانتها جاءت لتعلمنا وتبين لنا كيفية إنكار منكر قد وقع، بمعنى أنها جاءت لتوضح المخرج الشرعي لمن وجد منكرًا من تلك التصاوير، وماذا عليه أن يفعل تجاهها إذن فالعلاج والمخرج من ذلك المنكر هو ما جاءت الأحاديث المتقدمة لتبينه ليرضى الله عز وجل عنا، ولتدخل الملائكة ذلك المكان مرة أخرى بعد أن مُنِعَت منه بسبب تلك التصاوير هذا ما جاءت الأحاديث لتقرره.

ولم تتكلم الأحاديث، ولم تتطرق مطلقًا لرسم ذوات الأرواح المقطوعة الرأس، أو الأعضاء فضلًا عن أن تجوزه.

أما التصاوير والرسم، وصنع التماثيل أعني إنشاء هذه التصاوير ابتداء فيبقى على حاله الأولى من الحرمة الشديدة، وأنه من كبائر الذنوب، فتصوير ذوات الأرواح سواء الوجه، أو باقي الأعضاء محرم ولا يجوز وسيؤمر فاعله أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وليس بنافخ وهو متعرض للوعيد الشديد المنصب على التصاوير والمصورين، كيف وقد علمنا أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال للرجل الذي جاء يسأله عن التصاوير: فنهاه ابن عباس عنها جميعًا كما في «صحيح مسلم»، ثم قال له: فإن كنت ولابد فاعلًا فالحجر والشجر وما لا نفس له؛ فانظر بارك الله فيك هذا ابن عباس حبر هذه الأمة يرى كراهية التصاوير مطلقًا ذوات الأرواح وغيرها، ثم قال: فإن احتجت إلى ذلك ولابد فلا شيء

يجوز سوى الأحجار والأشجار وما لا نفس له. فكيف الأمر في من توسع في تصوير ذوات الأرواح إلى الغاية منها والعياذ بالله من هذا المنكر العظيم.

وعليه فإن ما يفعله بعض الناس اليوم من رسم لأجسام الحيوانات والإنس، أو بعض أجزائها بدون رسم للوجه، أو رسمه مع وضع خط على العنق يزعمون بذلك أنهم قد أزالوا المحظور بقطع العنق، ويحسبون أن ذلك جائز، ويستدلون بالأحاديث المتقدمة، فإن هذا خلط رهيب، وسوء فهم ظاهر للنصوص والأحاديث الواردة في ذلك؛ لأن الأحاديث لم تسوغ إنشاء الرسم، أو التصاوير ابتداء وإنما غاية ما فيها أنها أوجدت المخرج فقط، وكيفية تغيير ذلك المنكر في تلك الصور التي عمت وطمت، فالأحاديث إنما بينت ودلت على السبيل الذي به يزول المحذور، ولم تأذن بتصوير أو رسم أو نحت الأعضاء سواء مقطعة أو متصلة من ذوات الأرواح فالأحاديث مقررة لهذا الأمر، ولم تتكلم عن التصوير والتجسيم لذوات الأرواح بدون رأس فضلًا عن تجويزها لذلك.

وكما هو معلوم أن اليد تجري فيها الروح، كما تجري في القدم والقلب والوجه، وإنما جاء تخصيص الرأس لبيان المخرج، ولما فيه من بديع الخلقة وعجائب الصنعة ما ليس فيما سواه من الأعضاء، ولأن الرأس إذا قطع صارت الصورة أشبه ما تكون بالشجرة التي لا روح فيها، أما أن يعمد الإنسان إلى الرسم والتصوير بدون رأس، فهذا ما لا دليل عليه، بل إن عموم الأدلة المحرمة للتصاوير تشمل جميع ما يصور من ذوات الأرواح فالجميع محرم، والجميع منهي عنه، فكل ما فيه روح هو داخل في العموم.

والأعجب من هذا أن بعض إخواننا الصالحين غفر الله لهم قد أقحموا الصور في مجال الدعوة إلى الله عز وجل، فأخذوا يرسمون هيئات الصلاة من سجود وركوع وجلوس ووضع اليدين على الصدر، وكيفية الوضوء، و

أطوال الإزار، وحد الإسبال مع رسم للقدمين لبيان ذلك وهيئات الجلوس المحرمة، وكيفية أداء مناسك الحج والعمرة مصورة بالأعضاء مع قطع للرءوس، أو مع تصوير الرأس وطمس معالمه ظنًّا منهم أن هذا يصيرها حلالًا، وما إلى ذلك زعمًا منهم أن هذا يوضح المطلوب ويقربه إلى الأذهان وأن المشاهد ليس كالمقروء في التأثير على الناس وأن هذه الطريقة قد أجدت في هذا المجال ونفعت، وهذا كله مع احترامي الشديد للدعاة وطلبة العلم الفاعلين له هو من الخطأ البين ذلك لأن كون الشيء أجدى مع الناس، ونفع لا يدل على إباحة ذلك الشيء فضلًا عن أن يكون مشروعًا كيف، وقد أخبر النبي ﷺ كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ :«**وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»، فهل يقول أحد إن وصف الفجور سيزول عن هذا الفاجر لكونه فعل ما يتأيد به الدين أم أنه يبقى على فجوره ؟ بل يبقى على هذا الوصف، وكم من منحرف وضالٍ بل ومبتدع اهتدى على يديه بعض العباد فهل يدل هذا على صلاحهم ؟كلَّا.

وقد ذكر النبيﷺ كما في «الصحيحين» من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال النبيﷺ: «**عرضت علي الأمم، فجعل يمر النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد....**» الحديث.

فهذا نبي لم يتبعه أحد وبعضهم لم يتبعه سوى رجل أو رجلين إلى غير ذلك، فهل هذا يعني وجود خلل في الأسلوب أو الدعوة؟! كلا والله وحاشاهم من ذلك عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وعليه فلا تكون الوسيلة صحيح وصالحة بناء على نتائجها، إلا إذا أتى دليل يؤيد ذلك، ويوضحه كيف وقد قام الدليل على خلاف ذلك؟

كما أن قلة الأتباع لا يعني خطأ الداعية، وفساد الوسيلة وعليه فكل هذا

لابد من ضبطه بنصوص الكتاب والسنة.

ثم إن الدعوة إلى الله عز وجل يجب أن تكون طيبة، ونظيفة، وصحيحة لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإننا لا نشك في أن مراد هؤلاء الدعاة إلى الله أن يجلبوا الهداية للناس عن طريق هذا العمل، ولكننا نذَّكِر أنفسنا و إياهم أن الهداية عند الله عز وجل وإن ما عند الله لا يطلب بما حرم، فأجملوا في الطلب، ومما يزيد الأمر وضوحًا أنه قد دخل في الإسلام في زمن النبي ﷺ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ من الأعاجم جمع غفير، ومع ذلك لم ينقل إلينا أن الرسول ﷺ، أو خلفاءه من بعده فعلوا ذلك، فلم يعمدوا إلى الرسم والتصوير، لتوضيح كيفيات العبادات، وطريقة أدائها مع الحاجة لذلك ووجود الداعي له فهؤلاء الأعاجم لا يعرفون اللغة العربية ولا سبيل إلى تعليمهم إلا بالتطبيق المباشر، أو الكتابة أو الرسم، فلم يعمدوا إلى الرسم أبدًا مع أنه أسهل وأيسر من الكتابة والترجمة باللغات المختلفة، بل استعملوا أسلوب التطبيق المباشر مع الكتابة في بيان ذلك بلغاتهم ما أمكن ذلك، ولو كان عندهم دليل أو أثارة من علم في جواز ذلك لفعلوه، لأنهم هم أحرص الناس على إرضاء الحق وهداية الخلق.

ومن هذا يعلم أن هذا هو عين الحق، و أن الخير كله فيما فعلوه فما علينا إلا أن نتبعهم، ونستعمل هديهم فهم أعرف بما يرضي الله ويسخطه رضي الله عنهم أجمعين.

كما أن استعمال الصور في الدعوة إلى الله هو من التشبه بأهل الكتاب، فقد استعملوها في الدعوة إلى صالحيهم وتعظيمهم كما في «الصحيحين» عن عائشة : أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**».

وهم أيضا في هذا الزمان يستعملون التصاوير تبعًا لأسلافهم المجرمين في بث سمومهم إلى الناس عبر أجهزة الإعلام، وعبر المجلات المصورة والموضوعة على حسب الأعمار والأهواء، ويقومون بتوزيعها بالمجان، وكلها دعوة إلى النصرانية ويشتريها المسلمون لأولادهم بدعوى أنها من التسلية، وما ذلك إلا لأنها اكتظت بالصور الشائقة الفاتنة، والتي تلفت انتباه الإنسان.

وقد تفشت الصور بين الناس في القرن التاسع عشر في زمن الثورة الفرنسية بشكل جعل حتى دعاة النصارى يشمئزون منه، فاستعمال التصاوير هو من هدي أهل الكتاب المغضوب عليهم والضالين الذين أمرنا أن نخالفهم ونباينهم ونجانب طريقهم، فالله المستعان وعليه التكلان.

وأما استعمال تلك الصور في نقل التقتيل والتشريد الذي يحصل لإخواننا المسلمين في مشارق الأرض، أو مغاربها لاستدرار عطف إخوانهم المسلمين، لينفقوا من أموالهم ويمدوا يد العون لهم فهذا خطأ آخر، والخطأ لا ينتج إلا خطأ مثله، فإن استعمال الصور المحرمة شرعًا بصيغ هي من أبلغ العموم، كنحو قوله ﷺ «**كل مُـصَـوِّرٍ في النار**»، وفي رواية «**كل مُـصَـوَّرٍ في النار**» .

ففي «الصحيحين» عن سعيد بن أبي الحسن قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: إني رجل أصور هذه الصور فأفتني فيها. فقال له: ادن مني. فدنا منه ثم قال: ادن مني. فدنا حتى وضع يده على رأسه قال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ ، سمعت رسول الله ﷺ يقول «**كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفسًا فتعذبه في جهنم**»، وقال: إن كنت لا بد فاعلًا فاصنع الشجر وما لا نفس له هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري عن سعيد بن أبي

الحسن قال: «كنت عند ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إذ أتاه رجل فقال: يا ابن عباس إني إنسان إنما معيشتي من صنعة يدي وإني أصنع هذه التصاوير. فقال ابن عباس: لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول، سمعته يقول: «**من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبدًا**» فربا الرجل ربوة شديدة واصفر وجهه فقال: ويحك، إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر كل شيء ليس فيه روح.

وقوله ﷺ:«**إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون**» «متفق عليه» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب فلم يدخل فعرفْتُ أو فعرفَتْ في وجهه الكراهية فقالت يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله، فماذا أذنبت فقال رسول الله ﷺ:«**ما بال هذه النمرقة**» فقالت: اشتريتها لك تقعد عليها وتوسدها. فقال رسول الله ﷺ:«**إن أصحاب هذه الصور يعذبون ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم ثم قال: إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة**».

وفي البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ :«أن النبي ﷺ لم يكن يترك في بيته شيئًا فيه تصاليب إلا نقضه»

وفي «الصحيحين» عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت على بابي درنوكًا فيه الخيل ذوات الأجنحة فأمرني فنزعته»والأحاديث في هذا المعنى متواترة، وهذه الأحاديث تدل على أن الصور وإن كانت رقمًا في ثوب فإنها محرمة أما ما جاء في «الصحيحين» عن بسر بن سعيد عن زيد بن خالد عن أبي طلحة صاحب رسول الله ﷺ أنه قال:

إن رسول الله ﷺ قال:«**إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة**» قال بسر: ثم اشتكى زيد بعد فعدناه فإذا على بابه ستر فيه صورة قال: فقلت لعبيد الله الخولاني ربيب ميمونة زوج النبي ﷺ: ألم يخبرنا زيد عن الصور يوم الأول؟ فقال عبيد الله: ألم تسمعه حين قال إلا رقمًا في ثوب، فإن هذا الحديث ليس فيه حجة بحمد الله وذلك لأمور:

الأمر الأول: أن الراويَيْن اختلفا في إثبات هذه اللفظة «إلا رقمًا في ثوب»، فهي معلولة بالاختلاف.

الأمر الثاني: أنه على فرض ثبوتها فإنها على الراجح من كلام زيد بن خالد رضي الله عنه، فإن حديث أبي طلحة المرفوع انتهى عند قوله «**إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة**» وأما قوله:«إلا رقمًا في ثوب» فهو اجتهاد من زيد بن خالد رضي الله عنه وأرضاه في مقابلة الأدلة المتقدم تقريرها، كما أن هناك جمعا من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قد عارضوه ـ رضي الله عنه ـ في هذا الفهم، وقالوا بعموم النهي الوارد في الأخبار وذلك واضح فيما تقدم ذكره قريبا عن ابن عباس، وعائشة وغيرهم رضي الله عن الجميع.

الأمر الثالث: أن الأحاديث المتكاثرة جاءت بالتحريم والنهي عن اتخاذ الصور عمومًا، وبالخصوص التي في الثياب كما تقدم مما يؤكد أن هناك وهمًا حصل.

الأمر الرابع:أن هذا الخبر محتمل، وهو من المتشابه الذي يجب رده إلى المحكم، فيزول الإشكال.

الأمر الخامس: أن هذه اللفظة فيها شذوذ فإن عبيد الله الخولاني وإن كان ثقة إلا أنه خالفه بسر بن سعيد في هذه الزيادة، كما خالفه جمع غفير من الثقات الذين رووا أحاديث النهي والمنع عن جميع الصور بما في ذلك المرقومة

في الثياب، بل جاءت الأحاديث المتواترة بخصوص ذلك كما تقدم.

أما ما جاء في «الصحيحين» عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن منه فيسر بهن إلي فيلعبن معي» فهذا إما أن يقال بأنه منسوخ لأن عائشة روت أحاديث النهي في كبرها، وأما لعبها فكان في صغرها، وإما أن يقال بأن هذا خاص بالبنات الصغار لتعويدهن على رعاية الأبناء ونحو ذلك أو أن يقال هذا مكروه للصغار فتحمل أحاديث النهي على الكراهة، وهذا الخبر على الجواز. والله أعلم.

أما حديث عائشة أنها قالت:«دخل علي ﷺ وأنا ألعب باللعب فرفع الستر، وقال: ما هذا يا عائشة؟ فقلت: لعب يا رسول الله: قال: ما هذا الذي أرى بينهن. قلت: فرس يا رسول الله. قال: فرس من رقاع له جناح. قالت: فقلت: ألم يكن لسليمان بن داود خيل لها أجنحة فضحك رسول الله ﷺ»[1] فهذا حديث ضعيف لا يحتج بمثله.

فكيف يسوغ عبد لنفسه بعد هذا أن يستثني شيئًا من هذا العموم بدون دليل من الكتاب أو من السنة فإن من عمم هو وحده فقط الذي يملك أن يستثني مما عمم أما نحن فعبيد لا نملك أن نعقب على قول الشارع، كما أننا لا

(١) أخرجه ابن حبان، وفيه يحيى بن أيوب الغافقي، قال عنه الإمام أحمد: «هو سيئ الحفظ»، وقال أبو حاتم: «لا يحتج به»، وقال النسائي: ليس بالقوي ومن وصفه بالثقة، فالمقصود أنه صادق اللهجة ثقة في دينه، فلا يتعمد الكذب، ولكن هذا لا يرفع عنه سوء الحفظ، كما أنه تفرد بهذا الخبر، وهو في الأصول فلا يقبل تفرده، وإن كان صدوقًا، فكيف وقد وصف بما علمت، كما أن خبره هذا ينافي الأحاديث الصحاح فلا عبرة به، وهو من منكراته رحمه الله، ولهذا وصفه الدارقطني بقوله: «في بعض حديثه اضطراب ومنه مناكير». والله أعلم.

نملك أن نفتئت عليه في حق متمحض له، فنستثني ما لم يستثنه لنُحل ما حرمه علينا عياذًا بالله من ذلك وعليه فإن استعمال هذه الصور المحرمة للحصول على أمر مشروع ـ وهو الدعوة إلى الله تعالى ـ هو من هذه الحيثية من التشبه بأهل الكتاب الذين يعملون بمبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» بينما نحن نتعبد لله بالوسائل، كما نتعبده بالغايات فالكل دين الله عز وجل، والله طيب لا يقبل إلا طيبًا، ولهذا تحولت المشاعر الإسلامية بين الإخوة المسلمين، والتي الأصل فيها أن تكون دائمًا متأججة متألمة لأحوال إخوانهم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى لحظات معدودة يدمع فيها العبد لأول مرة، ثم يجف الدمع في المرات القادمة، وكما قيل: «كثرة الإمساس تفقد الإحساس»، فيدفع دراهم معدودة، ويظن أنه بهذا قد أدى ما عليه تجاه إخوانه المسلمين، وهكذا فإن ما بني على خطأ لا يثمر إلا خطأ مثله، وما قام على غير دليل أو مناهض له فإن الله يمحق بركته، وإن كان مراد صاحبه الخير والدعوة إلى الله.

كما أنه ينبغي أن لا ننسى أن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وليت شعري متى يكون الأمر المنهي عنه طيبًا؟ و أما من قال إنها من باب الضرورات قلنا إن الضرورات يقدرها صاحبها، والدعوة إلى الله هي لله، وهو الذي حرم علينا ذلك فكيف يحرمه ثم يضطرنا إليه؟ نعم: لو قيل ذلك في باب المعاملات التي يضطر إليها الإنسان قهرًا وجبرًا لساغ ذلك ـ مع إعلانه البراءة منها، وبغضه إياها في قرارة نفسه، ويجهر بإنكارها إن تمكن من ذلك، ويسعى إلى نفيها عنه بشتى الوسائل، ويجلس أمام المصور، وهو مبغض لذلك لا مبتسمًا مسرورًا لابسًا أحسن الثياب، كأنه ذاهب إلى المسجد، بل هي أشبه ما تكون ببيت الخبث الذي لا يطيق الإنسان طول المكث فيه، بل يبادر إلى الخروج منه بمجرد قضاء حاجته منه أما أن تستعمل تلك الصور بحجة الضرورة في مجال الدعوة إلى الله فهذا ما لا

دليل عليه بل جاءت الأدلة تنهي عنه.

والقاعدة المتفق عليها في هذا الباب؛ أعني باب الوسائل الشرعية هي: (أن كل أمر انعقد سببه في زمان النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وقام المقتضي على الفعل مع إمكانية الفعل ولم يفعلوه ففعله بدعة منكرة) وهذه قاعدة منضبطة في كل أفرادها بهذه القيود الواردة فيها أما إذا تخلف قيد منها فلا تنزل على الواقعة وهي بحمد الله منضبطة فيما نحن فيه من استعمال التصاوير في باب الدعوة إلى الله فإن قيل إن الكاميرات لم تكن موجودة في زمانهم فنقول: إن الرسم كان متاحًا ومتيسرًا وكان في زمانهم من يتقن ذلك ومع ذلك لم يفعلوه وهذا القدر دال على ما عداه، ومبين أن العموم الوارد في الأدلة يشمل كل صور ذوات الأرواح فإن الصورة بإجماع أهل اللغة هي الشكل فما كان شكلًا من ذوات الأرواح فهو محرم.وليت شعري لو كان عند قوم نوح هذه الكاميرات لما ترددوا في استعمالها لأن المراد إيجاد صورة مطابقة لصالحيهم.

ناهيك عن اللَّبس الكبير الذي وقع فيه العوام، فبعد أن كانت الصور عندهم من المحرمات المسلَّم بها أصبحوا اليوم يشكون ويشككون في ذلك وما ذلك إلا لأن بعض طلبة العلم أجازوا لأنفسهم المثول أما شاشات المصورين المتوعدين بأشد العذاب دون أن ينكروا عليهم ما هم فيه من المنكر، فهل سمعتم في يوم من الأيام أن أحدًا من الذين وقفوا أمام تلك الشاشات أنكر الصور، أو بين حرمتها وأنه ما وقف أمامها إلا للضرورة، كما يزعمون معلنًا ذلك على الملأ لكي لا تقع الفتنة بفعله .

هذا ما لم يحصل، ولا أظنه يحصل ولكن كثرة الإمساس تفقد الإحساس والله المستعان وعليه التكلان.

ولذلك كثرت الصور اليوم بشتى أنواعها المتحرك منها وغيرها، وعكف

الناس عليها صغارًا وكبارًا، وحجتهم في ذلك أن فلانًا من أهل العلم أجاز الصور حتى أن بعضهم أخذ يعلق تلك الفتاوى على أبواب محلات الفيديو المدمرة، ومحلات التصوير، ولسان حاله ومقاله يقول: لا تنكروا علينا فإن لدينا فتوى بجواز وحل التصوير فالله المستعان. ولذلك فليتق الله في هذه الأمة كل من يفتي بحل ذلك، ولينظر إلى الأبعاد السيئة والآثار المدمرة لمثل هذه الفتاوى، وإن كان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يقول لمن عكف على تصاوير الشطرنج وأضاع وقته أمامها: «ما هذه الأصنام التي أنتم لها عاكفون» فسماهم عليها عاكفين مع أنها جامدة لا تتحرك، فكيف بالصور المتحركة والتي عظمت الفتنة بها، والعياذ بالله، والله المستعان وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.والله أعلم.

الاستنباط السابع عشر

من قول النبي ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**» فإنه يلاحظ على بعض الأئمة أنهم ينتظرون المأموم الذي أخذ يجري حتى تسمع دبدبة قدميه من شدة الإسراع إلى الصف؛ ليدرك الإمام في ركوعه مع أن النبي ﷺ قال:«**من رأى منكم منكرا فليغيره...**» الحديث وعليه، فإنه يلزم الإمام تغير هذا المنكر وحيث إنه لا يستطيع أن يغير هذا المنكر لا بيده ولا بلسانه، فلا أقل من قلبه وبما أن النبي ﷺ قد قال: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» «متفق عليه»من حديث النعمان بن بشير ، رضي الله عنه.

فإن القلب هو سيد الجوارح، وعملها ملازم لعمل القلب فإذا كره الإمام هذا الفعل بقلبه تبعته الجوارح، فلم تسمح بانتظار هذا المرتكب للنهي حيث قال ﷺ عن الصلاة: «**إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم بالسكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا**» «متفق عليه»من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ واللفظ للبخاري.

فعلى الأئمة إذا سمعوا هذه الأصوات ألا ينتظروا هذا القادم حتى لا يكونوا عونًا له على الإثم والعدوان مما يفتح بابًا لغيرهم أن يفعل ذلك ويُلحق بذلك ما ظهر من المحدثات من مخاطبة المأموم للإمام الراكع بنحو قولهم: واصبر وما صبرك إلا بالله، أو التنحنح أو التصفيق، أو تحريك المفاتيح بشكل مزعج، وما شابه ذلك من المحدثات التي يريد بها الداخل لفت انتباه الإمام إلى أن ينتظره عافانا الله وإياكم من الإحداث في الدين، وتغيير هدي سيد المرسلين.آمين.والله أعلم.

الاستنباط الثامن عشر

من قوله تعالى ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، إشارة إلى أن هناك فرقًا بين النظر والإبصار فجهاز الرؤية الظاهرية للأشياء هي العين فبها يكون النظر المجرد وجهاز رؤية الأشياء على حقائقها واكتشاف وحدانية الله فيها إنما يكون بالقلب الحي وبه يكون الإبصار فإذا كانت العينان سليمتين و القلب أعمى مطموسًا عليه كانت النتيجة مجرد النظر الظاهري الذي لا ينتفع معه صاحبه، ولا يحصل معه التفكر و التدبر ولا العظة ولا الاعتبار؛ لأنه لا يعدو أن يكون

نظرًا لظواهر الأشياء دون تبصر واستبصار فيها وسبر لغورها، ومراد وجودها وحقيقتها، ولذلك فهم ينظرون بأعينهم إلى الرسول ﷺ المؤيد بالوحي وبالمعجزات، والعلامات الدالة على صدقه وينظرون إلى الكون الدال على وحدانية الله عز وجل، ومع ذلك لما كان القلب معطلًا وصفهم الله عز وجل بأنهم لا يبصرون؛ لأن نور البصيرة في القلب منطفئ مع وجود نور العين وهو النظر المجرد، أما إذا كان القلب حيًّا حصل الإبصار الحقيقي الذي ينتفع به صاحبه في الدنيا والآخرة، بخلاف الأول فإنه قد ينتفع ببصره في الدنيا ولكنه لا ينفعه ذلك في الآخرة؛ لأن بصيرة القلب مختوم عليها فرب أعمى بصير ورب مبصر أعمى .

ولذلك تسلب أنوار أبصارهم على الصراط أحوج ما يكونون إليها تبعًا لعمى القلوب في الدنيا كما قال تعالى:﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالمنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ الله وَغَرَّكُم بِالله الغَرُورُ ۞ فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٥]

وقد أخرج الطبري في «تفسيره» بإسناده عن خالد بن معدان قال: ما من آدمي إلا وله أربع أعين عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيرًا أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله بعبده شرًّا طمس عليهما فذلك قوله:﴿أَمْ عَلَى

قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وفي رواية قال: ما من الناس أحد إلا وله أربع أعين: عينان في وجهه لمعيشته، وعينان في قلبه، وما من أحد إلا وله شيطان متبطن فقار ظهره عاطف عنقه على عنقه فاغرٌ فاه إلى ثمرة قلبه، فإذا أراد الله بعبد خيرًا أبصرت عيناه اللتان في قلبه ما وعد الله من الغيب فعمل به وهما غيب فعمل بالغيب، وإذا أراد الله بعبد شرًّا تركه ثم قرأ ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.ا.هـ.

وقال الله تعالى:﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. والله أعلم .

الاستنباط التاسع عشر

من قوله تعالى ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقد بدأ الآية سبحانه وتعالى بوصف؛ هو وصف للشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل إلا إذا تاب العبد منه توبة نصوحًا.

فالآية افتتحت بذكر دعاء أي: آلهة سوى الله عز وجل، أو مع الله عز وجل، وأن هذا هو الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾، مما يدل على أن الشرك والكفر معنيان مترادفان، وعليه لما وصف الله عز وجل اليهود والنصارى في القرآن الكريم بالكفر، فهذا هو الكفر المرادف للشرك؛ لأنهم اتخذوا مع الله آلهة أخرى ولهذا

قال تعالى في ذكر خطاب عيسى لقومه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فكفرة أهل الكتاب كفرة مشركون، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ومَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] مع قوله تعالى:﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، فهو من الترادف بين الكفر والشرك الأكبر، وكذلك وصف النبي ﷺ تارك الصلاة بأنه كافر تارة، و بأنه مشرك تارة أخرى، وذلك في قوله ﷺ: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[1] هو من ترادف الألفاظ الدالة على معنى واحد، وهو خروج صاحبه من الملة وخلوده في النيران أبد الآبدين، ودهر الداهرين؛ لأن تارك الصلاة قدم ما تهواه نفسه على ما أمره به ربه من إقامة الصلاة التي هي الصلة بين العبد وربه، فإذا عمد عبد إلى هذه الصلة فقطعها انقطعت عنه أسباب الرحمة واستحق الطرد والحرمان والخلود في النيران، كما قال تعالى:﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١] .

وقد أجمع الصحابة على كفر تارك الصلاة، كما نقل إجماعهم غير واحد من أهل العلم منهم الحميدي،و الآجري، وابن بطة، والترمذي، وابن تيمية، وابن القيم، وغيرهم من أهل العلم. والله أعلم.

الاستنباط العشرون

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما.

من قوله تعالى وصفًا لإقامة حد الزنا وكيفيته:﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢٠]، فقد ذهب البعض من الناس إلى أنه يكفي في ذلك أن يحضرها نفر من المسلمين، وإن أقيم الحد تحت الكواليس، وفي غياهب السجون والمعتقلات، وهذا خطأ محض؛ وذلك لأن الحكمة من إقامة الحدود إرجاع الحقوق إلى أهلها، وحسم مادة الشر، أما إرجاع الحقوق فيتم بمجرد إقامة الحد، وأما حسم مادة الشر فلا يحصل بإخفاء الحدود عن الأنظار، وإنما يتم ذلك بالإشهار وإقامته على أعين الناس، لعلهم أن يرتدعوا ويبتعدوا عن موجبات الحدود، فيحصل الأمن والاطمئنان للعباد على أموالهم وأعراضهم، حتى يعبد الناس ربهم ويعمروا الأرض التي استخلفوا فيها، وإن إخفاء الحدود عن الأنظار فيه نشر لأسباب الفساد، وتقوية عليها بخلاف إعلانه وإشهاره، فسبحان الخبير البصير بعباده العليم بما فيه صلاحهم في حالهم ومعادهم.والله أعلم.

الاستنباط الحادي والعشرون

من قوله تعالى:﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]؛ دليل على أن كل من حكم في عباد الله بغير شرع خالقهم أنه مشرك كافر وأن من أطاعهم، أو جرى في ركابهم مختارًا مريدًا لذلك، فقد أتى ناقضًا من نواقض الإسلام؛ فإن كان الله عز وجل يقول في كتابه العزيز في بيعة النساء:﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢]، فقيد المعصية بالمعروف أي: أنه لو فرض وهذا محال قطعًا أن يأمر النبي ﷺ بمعصية، فإن الطاعة لا تجوز وإنما

جاءت في الخطاب هنا بهذه الصورة؛ لبيان عظم الأمر وشدة امتناعه، فإذا كان هذا هو الحال مع خاتم الأنبياء وسيد المرسلين الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يأمر إلا بالخير المحض، فكيف يكون الحال مع من يطيع الكافرين في تغيير شرع رب العالمين، فإن طاعته في غاية الامتناع، بل هو كفر أكبر مخرج عن الملة.

ولكن يا لشدة غربة الملة الحنيفية بين الناس، اليوم والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.والله أعلم.

الاستنباط الثاني والعشرون

من قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] فيه جواز تزكية النفس مع الاستثناء في ذلك عند الحاجة لوضع الطمأنينة في قلوب الآخرين، وأن هذه الآية مقيدة ومخصصة لقوله تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] وأنه لا بأس بذلك مع الاستثناء والحاجة، ولكونه أسند الأمر إلى مشيئة الله عز وجل.

وعليه فإن التزكية نوعان محرمة: وهي التي يجزم بها صاحبها من كل وجه، فيزعم أنه من المتقين على وجه الإطلاق.

وأخرى جائزة: وهي التي قد قيدت بالاستثناء وفي حالة خاصة لا على

العموم والإطلاق. كما أن الإخبار عن النفس قد يكون أيضًا من باب التعريف لا من باب التزكية، كما في «صحيح مسلم» من حديث ابن عباس في قصة حديث وفد عبد القيس حيث قال: لقي النبي ﷺ ركبًا بالروحاء فقال: «**من القوم؟ قالوا: المسلمون. فقالوا من أنت؟ قال: رسول الله. فرفعت إليه امرأة صبيًّا، فقالت ألهذا حج؟ قال: نعم! ولك أجر**» فتأمل. والله أعلم.

الاستنباط الثالث والعشرون

من قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٠ـ ٣٢].

فيه دلالة واضحة على أن تارك الصلاة مشرك كافر، وأنه من الذين فرقوا دينهم، وكانوا شيعًا وهم بذلك فرحون مطمئنون لما هم فيه من الغي والضلال قاطعين صلتهم بالله عز وجل بإرادتهم وعلمهم، فحق لمن كانت هذه صفته وفرق دينه أن لا يجتمع عليه أمره، فينفرط و يكون من أصحاب الجحيم، وبكفر تارك الصلاة قال: الصحابة الكرام بل وأجمعوا على ذلك، وهذه الآية وأشباهها هي مستند هذا الإجماع، فإذا انضاف إلى ذلك الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث جابرٍ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن بين**

الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»، وما أخرجه أحمد، والترمذي، وقال حسن صحيح غريب، والنسائي، وابن ماجة، وغيرهم من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **«العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»** اتضح الأمر وزال الإشكال، وليس هذا محل بسط القول في ذلك . والله أعلم .

الاستنباط الرابع والعشرون

من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ إِنَّ الله يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، فيها أن المنفي هنا هو الاستماع المستلزم للإجابة أي الاستماع للأوامر والنواهي، والذي يصدقه القول والعمل أما من كان ميتًا على المعنى الظاهر الذي هو في قبره، فهو منقطع عن القول والعمل، والاستجابة للداعي.

وعلى المعنى الآخر، فكذلك صاحب القلب الميت، فهو الآخر مقبور قلبه في جسده، فهو لا ينتفع بالذكرى ولا يمتثل الأوامر، ولا يجتنب النواهي فهو والداعي في المثل، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، أما مطلق السمع فهو ثابت لكلا النوعين ولكن الميت سمعه محصور على حياته البرزخية فيسمع قرع نعال الذين دفنوه، ووقفوا على قبره ويسمع السلام الملقى عليه من الأحياء، ولكنه مرتهن في قبره لا يملك لنفسه شيئًا فضلًا عن غيره،

والحي كذلك يسمع وسمعه أكمل من سمع الميت؛ لأن الروح تامة التعلق بالبدن، ولكن المعول عليه هنا في هذه الآية هو سمع الإجابة والاستجابة، فإن هذين النوعين هما المنفيان عن المقبور سواء في الأرض، أو الذي قبر قلبه في جسد المعرض المستكبر المعاند الغافل. والله أعلم.

الاستنباط الخامس والعشرون

من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤].

فيها أن هؤلاء المنافقين لن يتأخروا في التلفظ والعمل الشركي والردة إلا قليلًا ففيه دلالة على أن التلفظ بكلمة الكفر وأعمال الردة ليس بالأمر اليسير وإن كان ذلك في الظاهر فقط.

بل هو معترك الأمواج ودونها المنايا، وفي حركات المد والجزر في ضمير وفؤاد المؤمنين دليل على إخلاصهم، وعلامة على صدقهم ولكن إذا كانت الضرورة القصوى وأشرفت النفس، أو كادت على الهلاك فلا حرج ولا تثريب عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦].

أما أن يبادر العبد بها ولا يتلبث بها إلا يسيرًا فهذا فيه نوع شبه بالمنافقين الذين ذكر الله في هذه الآية وأمثالها.والله أعلم.

الاستنباط السادس والعشرون

من قوله تعالى:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فيها أن الإنسان إذا كان في موضع القدوة، فإنه يطالب بمراقبة أفعاله أمام الناس، وأن هذا ليس من الرياء في شيء خاصة إذا كان بزلته تزل الأمة أو بعضها ولكن عليه في ذلك أن يتقي الله عز وجل وأن لا يجعل حظه من عمله هداية الناس ويغفل عن هداية نفسه بالإخلاص والمتابعة وإذا كان بخطئه سيشيع المنكر، فإنه يجب أن ينبه إلى ذلك، ولا يتركه يمضي دونما استدراك وبيان، فإن هذا من النصح للعلماء، وعامة المسلمين. والله أعلم.

الاستنباط السابع والعشرون

من الحديث الذي أخرجه البخاري في «صحيحه» من حديث أنس رضي الله عنه: «**أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة ؟ قال : وماذا أعددت لها ؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ فقال: أنت مع من أحببت**»

فإن فيه دلالة على احتقار الصحابة لأعمالهم وعظيم خوفهم من عدم قبولها، وأن هذا كان ديدنهم، فهم يعملون الأعمال العظام ومع ذلك لا

يعلمون، أقبلت أم لا؟ فهم دائمًا يحتقرون أعمالهم، ويتهمون أنفسهم بالتقصير في جنب نعم الله الكثيرة ومنته الخاصة عليهم بالصحبة النبوية، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، ولذلك لم يذكرها هذا الصحابي فيما أعده للساعة لعدم معرفته بقبولها من عدمه، ولذلك ذكر الأمر الذي هو متيقن منه، فهو في قلبه أرجى شيء عنده، وهو كذلك، فما أعد العبد عدة أعظم من محبة الله ورسوله.

ولكن ليس مراد السائل هنا نفي العمل مطلقًا كما تزعمه بعض الطوائف التي ضلت في معرفة حقيقة الإيمان، فظنوا أن عمل القلب وحده كاف في نجاة العبد، أو أن المحبة وحدها دون عمل تنفع صاحبها كلا بل كان الصحابة يعلمون أنه لا إيمان بدون عمل، كما أنه لا عمل ينفع بدون إيمان؛ فالإيمان عندهم حقيقة مركبة من القول والعمل والاعتقاد، فالأعمال من لوازم الإيمان التي لا تنفك عنه إذن فالمراد هنا ذكر أوثق وأرجى الأعمال لا نفيها. والله أعلم.

الاستنباط الثامن والعشرون

من الحديث الذي أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله، الله**» يحتمل ذلك معنيين. والله أعلم:

المعنى الأول: أن ذلك بسبب انتشار الشرك الأكبر في الأرض يومئذ والعياذ بالله من ذلك.

المعنى الثاني: أن ذلك بسبب انتشار الإلحاد؛ ذلك لأن المشركين يعرفون الله ويذكرونه، ولكنهم يعبدون ويذكرون معه غيره، أما الملحدون فهم أصحاب مبدأ «لا إله والحياة مادة» ـ والعياذ بالله من قولهم، ونسأل الله العافية من ذلك آمين ـ وما انتشار كتبهم ودخولهم في كل منزل عن طريق أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة، هذا مع تعظيمهم اليوم وتقديس أقوالهم وأفكارهم، والسفر إلى بلادهم والإعجاب بهم والانبهار بحضارتهم إلا بذرة وإرهاصات لمثل ذلك الجيل الذي تعم فيه لوثة الإلحاد والاستغراق في المادة، ولذلك ـ والله أعلم ـ يغضب الله عليهم فيقيم عليهم الساعة التي لا تقوم إلا على شرار الخلق، عياذًا بالله من ذلك اليوم، ومن ذلك الجيل الذي انقطعت صلته بالله تمامًا والعياذ بالله. والله أعلم.

الاستنباط التاسع والعشرون

من قوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم**» فإن فيه كبحًا لجماح المؤولة والمعطلة وطمأنة للذين اتبعوا السنة في أسماء الله وصفاته عز وجل، وكأنه ﷺ بأبي هو وأمي يقول إنكم سترون الله عز وجل عيانًا دونما حجاب فاصبروا على الحق في أسمائه وصفاته ولا تلحدوا فيها فإنكم سترونه عز وجل ولن يعرف اللهَ عز وجل؛ إلا أولئك الذين اتبعوا الحق المستمد من الكتاب والسنة في ذلك. أما الكافرون والمعطلون وأضرابهم فإنهم لن يعرفوا ربهم يوم القيامة. وقد جاءت السنة مشيرة إلى هذا المعنى، وأن المؤمنين يعرفون ربهم بصفاته التي سماها لهم في الحياة الدنيا في كتبه وعلى ألسنة رسله كما في «الصحيحين» من حديث أبي

هريرة قال: قال أناس يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ **فقال: «هل** تضارون في الشمس ليس دونها سحاب قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك يجمع الله الناس فيقول من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه. فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون. فيقول: أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه ويضرب جسر جهنم ....»الحديث. والله أعلم.

الاستنباط الثلاثون

من قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢] فيه سخافة عقول أولئك القوم حيث أنهم أعرضوا عن الخطب الجلل والأمر الأهم؛ ألا وهو سبب خروج هؤلاء الفتية من قريتهم بغض النظر عن عددهم، فالقصة سيقت لبيان السبب، لا لبيان العدد.

وهذا حال كثير من الناس حيث أنهم يسألون ويبحثون وراء أمور لا تنفعهم، بل قد تضرهم وأحسن درجاتها أن تكون من العلم الذي لا ينفع والجهل به لا يضر، ولذلك بَيَّن سبحانه وتعالى أن عددهم يعلمه هو سبحانه،

ولا يعلمه من عباده إلا القليل ومع علمه بذلك سبحانه أعرض عنه، إذ لا فائدة ترجى من جراء ذلك ولكن مسألة سبب خروجهم مسألة ينبغي أن نتأمل فيها، وننظر لأنها مسألة ينبغي على الجميع أن يعرفوها لأنها الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، فلو أنهم صرفوا الهمة إلى ذلك وتدبره لكان أجدى لهم وأنفع، ولذلك أمر النبي ﷺ أن لا يماري فيهم إلا مراءً ظاهرًا، وأن لا يسألهم عنهم وهذا كثيرًا ما يرد في القرآن من إبهام ما لا فائدة فيه، ولا طائل من ورائه لكي تتفرغ الهمم، وتستعد القلوب لاستيعاب الدرس الأهم، والتوجيه الأعظم في تلك الآيات.

ولكن الناس ما فتئوا يسألون عن اسم الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ولم يسألوا لماذا جاء ولا ماذا أراد وقال. ويسألون عن اسم الذي قال إنه كان لي قرين، ولم يسألوا عن قوله وعن حاله وحال ذلك القرين. وعن اسم صاحب الجنة الكافر ومجادله المؤمن ولم ينتبهوا لموضوع القصة وسبب سياقها. وعن اسم أصحاب القرية الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين، ولم يسألوا عن سبب عذابهم وهلاك مالهم. ولا يزال الناس يسألون عن تواريخ تلك الأحداث وأزمانها مع أن تلك الأحداث لم تُسق لبيان ذلك؛ بل أعرضت النصوص عنه تمامًا لعدم فائدته.

وفي زماننا هذا ترى وتسمع من ينقب في الأرض بحثًا عن الأحافير، وهناك من يزور المتاحف وديار المعذبين، ونحو ذلك مع الغفلة عما حل بهؤلاء وما جرى عليهم بل وعدم السؤال عن ذلك والأمر كما قال تعالى:﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٥، ٤٦] .

وهكذا يلتفت الناس إلى الذي هو أدنى ويتركون الذي هو خير، والله خير وأبقى . والله أعلم .

الاستنباط الحادي والثلاثون

من قوله تعالى عن قوم لوط: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا الله وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

فيها دلالة على أن الله عز وجل من رحمته بعباده وحلمه عليهم أنه لا يعذبهم بالذنب من أول مرة، بل يمهلهم لعلهم أن يتوبوا، أو يقلعوا حتى إذا ما استحكمت الشهوة بهم وتبع ذلك الإصرار والاستكبار والتعالى منهم على أمر الله ورسوله جاءهم العذاب من حيث لا يشعرون، وهذا كله في قوله تعالى:﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨].

فاجتمعت جملة من الأفعال القبيحة فحقت عليهم كلمة العذاب، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]. والله أعلم .

الاستنباط الثاني والثلاثون

من قوله تعالى لأم موسى عليهما السلام: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ [طه: ٣٩] هذا فيه طمأنة لقلب أم موسى حيث بدأ سبحانه وتعالى بذكر أن فرعون عدو لله عز وجل أولًا، قبل أن يكون عدوًّا لابنها موسى ـ عليه السلام ـ فيطمئن قلبها ويسكن الفؤاد حيث علمت وأيقنت أن فرعون مغلوب لا محالة، وأن ابنها فلذة كبدها منصور وغالب لا محالة، لأن الله عز وجل قرن بين عداوة فرعون لموسى ـ عليه السلام ـ وبين بيان أنه عدو لله قبل ذلك ومن كان الله عز وجل عدوه فأنَّى له أن يفلح، وأنى له أن ينتصر ومن كان الله وليه فلن يضل ولن يشقى ولن يغلب ولن يقهر، فاطمأن القلب للنصر وسلامة فلذة الكبد وإهلاك العدو الطاغية والله نعم المولى ونعم النصير. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ففي تقديم ذكر عداوة فرعون لله تعالى على عداوته لموسى ـ عليه السلام ـ هذا المعنى اللطيف الدقيق.والله أعلم.

الاستنباط الثالث والثلاثون

من قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۞ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه:٢٩ ـ ٣٥] فيها أن العبد حري به أن يسأل الله عز وجل أن يوفقه إلى جليس صالح، وصديق ناصح يعينه على الطاعة إذا نشط، ويذكره

إذا نسي، وينبهه إذا غفل ويحثه عليها إذا ثبط، ويأخذ بيده إذا جهل وينهاه عن مواطن الزلل، ومراتع الشر وأن هذا الصديق كلما كان أقرب نسبًا كان أعظم أثرًا وأشد عونًا وصدقًا وإخلاصًا.

ومن ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٥] أي: عالمًا بأحوال العباد، وما ينوبهم من لحظات الضعف والنسيان، فقيض لنا يا ألله صديقًا يعيننا على طاعتك، ويبعدنا عن معصيتك، بمنك وكرمك يا أهل المن والجود والكرم والإحسان.والله أعلم.

الاستنباط الرابع والثلاثون

من قوله تعالى:﴿الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢٣]، والاستنباط متعلق بحمل هذه الآية على عمومها على ظاهرها، وأنه سبحانه وتعالى قد أنطق كل شيء من خلقه في العالم العلوي والسفلي، ولقد أثبت الله عز وجل ذلك في كتابه الكريم، وبينه بقوله تعالى:﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فهذه هي السموات وجه إليها الأمر جملة بما فيها، وكذلك الأرض فنطقتا بإنطاق الله لهما وكان النطق إجمالًا شاملًا لكل ما فيهما لعموم الأمر الموجه إليهما، ومما يبين النطق أيضا قوله تعالى:﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فسبحان من جلت قدرته عن المثيل، وتنزه عن الصاحبة والولد، فأنطق كل شيء فسبح بحمده وحده لا شريك له ولا ند. وفي ذلك رد على المعتزلة والعقلانيين والقائلين بالمجاز في الكتاب العزيز. فالله قادر على أن يجعل في

خلقه ما يشاء من الأحاسيس والأفعال، فسبحانه وتعالى عما يصف المبطلون.والله اعلم .

الاستنباط الخامس والثلاثون

من قوله تعالى:﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٤، ١٥] كان هذا من باب الجزاء من جنس العمل والمعاملة بالمثل، والله أعلى وأجل كقوله تعالى:﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقوله تعالى:﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: ١٢٦]، ونحوها من الآيات الدالة على ذلك.

فهؤلاء القوم لما تتابعوا على الذنوب والمعاصي، وانغمسوا في الشهوات والشبهات؛ كان ذلك سببًا في علو الرين على قلوبهم، فأصبحوا ذوي قلوب لا تفقه، وأعين لا تبصر، وآذان لا تسمع، فصاروا كالأنعام، بل هم أضل؛ لأنهم وقعوا في داء الغفلة، فلم يشهدوا بقلوبهم عظيم القدرة وإحكام الصنعة بل عاشوا بأعضاء معطلة ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] فلما عملوا على أن يحجبوا أنفسهم عن الحق في الحياة الدنيا، وسعوا في آيات الله معاجزين فطمسوا فطرة الله في قلوبهم، وعطلوا عنها أعضاءهم جاءهم جزاؤهم من جنس أعمالهم قدرًا من الله وعدلًا، فحجبوا عن الحق المبين حيث حجبوا عن رؤية رب العلمين، وذلك والله عذاب أعظم من الجحيم ولكنهم ما هم عنها بغائبين، وكذلك الذين ألحدوا وعطلوا في أسماء الله وصفاته، فحجبوا أنفسهم عن رؤية الحق في الكتاب والسنة، وردوها بعقولهم

السقيمة وأقيستهم الفاسدة، فهم لم يعرفوا ربهم بل ران ذلك الضلال على قلوبهم فحجبهم ولذلك قال: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦] فقدم العذاب الأعلى على الأدنى. والله أعلم.

الاستنباط السادس والثلاثون

من قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[الحج: ٧١]، وضحت هذه الآية أن المشركين على نوعين فالنوع الأول من يعبد من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا، وأما النوع الثاني فهم الذين يعبدون ما ليس لهم به علم، والاستنباط متعلق بوصف هذين النوعين فنقول وبالله التوفيق :

النوع الأول: هم القادة من أهل الضلال الذين شرعوا للناس هذه الآلهة وابتكروها وأحدثوها لهم، فالآية تقول لهم هل عندكم من سلطان يوم أن نصبتم هؤلاء آلهة من دون الله عز وجل، أم هو محض الهوى وحب الشهرة والرئاسة، والتجبر والتكبر والاستعلاء في الأرض بغير الحق، فهؤلاء يطالبون بالبرهان والسلطان على ما أقدموا عليه كما طالب موسى ـ عليه السلام ـ السامري الذي نصب لبني إسرائيل العجل إلهًا من دون الله عز وجل؛ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾[طه: ٩٥] ثم بين سبحانه أنه إنما اتبع الهوى، وسولت له نفسه الأمارة بالسوء واستزله شيطانه، والعياذ بالله كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[طه: ٩٦].

النوع الثاني: وهم الأتباع من الهمج والرعاع، الذين أعاروا عقولهم

للآخرين ليفكروا لهم ويختاروا لهم آلهتهم، فقلدوهم في قضية هي أخطر القضايا وأهم مسائل العقيدة؛ ألا وهي مسألة معرفة الخالق المعبود، ولذلك فهم عبدوا بدون تفكير ولا علم ولا معرفة لما يعبدون.والله أعلم.

أو أن يقال أن النوع الأول: هم الذين لهم عقول يفكرون بها، ويبحثون وهم حريصون على أن يقدموا البراهين على أقوالهم وأفعالهم وابتكاراتهم، فيقال لهم هل عندكم من سلطان، أو برهان على ما تعبدون من دون الله عز وجل، فيكون ذلك دافعًا لهم للنظر فيما هم فيه من الضلال، فلعلهم أن يرجعوا عن غيهم وضلالهم .

أما النوع الثاني: فهم الذين لم يهتموا أصلًا بقضية الإله، بل هم غارقون في حياتهم الدنيا يفكرون على أدنى المستويات: البطن والفرج فقط، والعياذ بالله. أما قضية العقيدة فيكفيهم في ذلك ما كان عليه الآباء والأجداد وهم لا يعلمون سوى ذلك، وعليه فإن الذين عُبدُوا بدون سلطان هم القادة والمفكرون وأصحاب العقول المبتكرة، وأما الذين عبدوا بلا علم فهم الأتباع، ممن لا هم لهم سوى ما هم فيه أما قضية العبادة والمعبود، فلا يهتموا بها كثيرًا، ولم يعيروها شيئًا من أوقاتهم، أو اهتماماتهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ۞ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٢، ٤٣]. والله أعلم.

الاستنباط السابع والثلاثون

من قوله تعالى عن موسى، ومعاتبته لأخيه هارون: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۞ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۞ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٤]

فيه الرد على بعض الفرق والطوائف التي تزعم أن سبب عدم كلامها في التوحيد وبيان الشرك الأكبر للناس ونهيهم عنه، وتحذيرهم منه أن هذه المسألة تفرق الصف وتشتت الكلمة، وتحدث الفتنة، وهذه الآية وغيرها، وكذلك الأحاديث ترد عليهم وتبين لهم أن أعظم فتنة تصيب العبد، بل الأمة جمعاء فتنة الشرك الأكبر، و لذلك عاتب موسى ـ عليه السلام ـ أخاه هارون ـ عليه السلام ـ ثم توجه إلى الله ـ عز وجل ـ بطلب المغفرة له ولأخيه وأن لا يجعل أخاه مع القوم الظالمين كما قال تعالى: ﴿ولَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠، ١٥١]، فما من فتنة إلا والشرك الأكبر أكبر وأعظم منها مهما كانت تلك الفتنة، كما قال تعالى:﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وفي آية أخرى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، والفتنة المذكورة في هذه الآية هي فتنة الشرك الأكبر والعياذ بالله منه، فإن الله لا يغفره وصاحبه خالد مخلد في النار أبد الآبدين، ودهر الداهرين إلا أن يتوب إلى الله منه توبة نصوحًا.

ولذلك فإن الواجب على كل داعية أن يرحم الناس، وأن يبادر إلى بيان ذلك الشرك أول كل شيء، وقبل كل شيء مهما كانت التكاليف والنتائج لأنها مهما كانت فإنها حتمًا دون عذاب جهنم والطرد من رحمة الله والحجاب عن رؤية الله وذلك عذاب أكبر مما تقدم وليعلم الجميع أن كل شيء قد يحتمل التدرج إلا مسألة الشرك الأكبر والكفر بالله عز وجل فهذه يلزم فيها المبادرة لإنقاذ الناس من الموت على عقيدة خربة تخرب الدنيا والآخرة وإن أدى ذلك إلى القتال بل لم يشرع الجهاد إلا من أجل إزالة الشرك الأكبر من الأرض قاطبة كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوْهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾[الأنفال: ٣٩] فلأن تُقطَفَ رءوس الشرك والضلال التي تحول بين العباد، وبين توحيدهم لربهم أفضل من أن يتركوا بشبهة مزعومة وحجة واهية، وهي حصول الفتنة، فيموتوا على الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، ويتبعهم الناس في شركهم، فهذه هي الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى التي ما وراءها مصيبة أكبر منها فأين الرحمة بالناس والرفق بهم والحرص على إنقاذهم؟!

ومما فتح الله به أبيات قلتها بهذا الصدد:

حمدًا لرب شاكر يتفضل ... يعطي الكثير عطاؤه لا يحصر
ثم الصلاة على الحبيب محمد ... ما صاح قُمْريٌّ وسبح ذاكر
هذا الكتاب البين المتوجِّه ... نحو المريد الحق فيما ينشر
إن الأمانة ضيعت في قومنا ... إن الشريعة عهدها لا يُخفر
أَعْلُوا شعارات تَوجَّهُ نحونا ... إن العقيدة حصنها لا يقهر
كم ناهج نهجًا يريد بيانه ... والمنهجُ الحق العقيدةُ تظهر
ظنوا الأمانة حفظها متيسر ... قد ظنها من قبل غر ثائر

لا تحسبوا أن الأمانة حفظها في رصف جسر أو بناء يظهر
لا تحسبوا أن الأمانة حفظها في ملء جسم أو زروع تثمر
حتمًا يقينًا موت شعب جائعًا قد حقق التوحيد لا لن يكفروا
إن الأمانة حفظها متمثل في دحض شرك أو علوم تنشر
علم الشريعة نشره متعين بين العباد همُ به قد حرروا
من رق شرك أو عبادة مذهب أو قول زنذيق خبيث يضمر
إن الذي يرعى الرعية خوفه من نار رب حرها لا يقدر
حقًّا يطير النوم منه لذكرها إن اللظى في جوفها يتفجر
أشفق على قوم وليت أمورهم حذرهمُ شركًا فذاك الأكبر
بصرهمُ في شركهم وضلالهم إن الإله لجرمهم لا يغفر
قوموا على تلك المشاهد قومة ترضون فيها ربكم كي تنصروا
لن تنصروا حتى تزال مراتع للشرك أضحت للحليم تحير
أو تفتحوا بابًا لدعوة صادق كي تنقذوا تلك الجموع فيبصروا
لن تنزل الخيرات في فلواتنا حتى يزال الشرك ذاك الأكبر
هذا الذي قد قاله رب الدُّنا في محكم التنزيل حقًّا صائر
فالله أعطى في الكتاب مثاله بالعنكبوت وبيتها لا يَعْمُرُ
عودًا على بدء بحمد إلهنا ثم الصلاة على البشير الأنور

الاستنباط الثامن والثلاثون

من قوله ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يجامع أهله قال :اللهم جنبنا

الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن قدر بينهما الولد لم يضره الشيطان» «متفق عليه». فقد يقول البعض أن من الناس من يقول هذا الدعاء، ولكن يحصل لابنه الضرر ويقع في الغواية والعياذ بالله من ذلك.

فنقول: إن بعض أهل العلم قد وجه هذا الحديث على أن هذا الضرر المنفي هنا هو التسلط المطلق من كل وجه حتى يرديه ويهلكه، فإن هذا ممنوع في حق من ذكر هذا الذكر، فإنه وإن أصابت الولد غفلة وضلال؛ إلا أن الشيطان لا يستحكم منه، بل يعود بإذن الله عز وجل إلى الصراط المستقيم بفضل الله، ثم بسبب هذا الدعاء هذا هو أحد الأقوال في هذا الحديث.

ولكن يَرِدُ عليه: أنه قد يحصل الضلال المطلق والاستحكام التام من الشيطان على هذا الابن ! ولكن ثمة توجيهان آخران يحتملهما الحديث أيضًا يضافان إلى التوجيه الأول، ولربما كان أحدهما أوجه من الآخر وهذا هو الاستنباط، فنقول وبالله التوفيق:

التوجيه الأول: أن أعداء الإنسان كثر وليس الشيطان هو العدو الوحيد، وإن كان هو العدو اللدود الأعتى، فهناك الهوى ورفقاء السوء وهناك فوق ذلك النفس الأمارة بالسوء، فهؤلاء كلهم أو أحدهم قد يكون سببًا في إغواء الإنسان عياذًا بالله منهم أجمعين.

والحديث نفى ضرر نوع واحد منهم وصنف واحد منهم فنفى الحديث الضرر المترتب من الشيطان الرجيم، ولم ينف بقية الأضرار من الأصناف الأخرى، وعليه يحمل من ضل من العباد وبقي كذلك حتى الموت مع أن والديه قد ذكرا هذا الذكر ولا شك أنها نعمة عظيمة، ومنة كبيرة يوم أن يكفى الإنسان ضرر أعظم أعدائه وأشدهم خطرًا فيبقى ما دونه أهون منه فالأعداء

الآخرون يمكن أن يتخلص منهم فالنفس يمكن ترويضها والهوى يمكن كبح جماحه والرفقاء السيئون يمكن البعد عنهم، ولكن ما الحيلة فيمن يجري منك مجرى الدم الوسواس الخناس؟!

فلا شك أنه من أعظم النعم يوم أن يدفع شر هذا اللعين، وذلك بعد توفيق رب العالمين، ثم بتنشئة الوالدين فهما اللذان يهودان ويمجسان وينصران، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق[1] صلوات ربي وسلامه عليه، ثم بفضل هذا الدعاء العظيم الذي يوضح مدى اهتمام هذا الدين بالأجيال الناشئة والحرص على هدايتهم حتى قبل ولادتهم.

التوجيه الثاني: وهو ربط هذا الدعاء بقول النبي ﷺ: «**إن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه**»[2]. وقوله ﷺ :«**لما ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب، ومأكله حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام؛ فأنى يستجاب له**»[3]. فلربما قال الوالد هذا الدعاء عادة، ولم يستحضر ربه في قلبه و لا عظمة هذا الذكر فيكون حال دعائه غافلًا، أو لربما كان هناك موانع أخرى لدى الوالد تمنع من استجابة هذا الدعاء، كأكل الحرام

---

(١) «متفق عليه» من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي، والحاكم، وإسناده ضعيف جدًّا؛ لأن مداره على صالح بن بشير بن وادع المعروف بالمري. قال عنه يحيى بن معين: ضعيف ليس بشيء، وقال: أيضًا كان قاصا وكان كل حديث يحدث به عن ثابت باطلًا. وقال البخاري: منكر الحديث، وقال عبد الله بن علي بن المديني: سألت أبي عن صالح المري، فضعفه جدًّا، وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن علي ابن المديني: ليس بشيء، ضعيف ضعيف، وقال عمرو بن علي: ضعيف الحديث، يحدث بأحاديث مناكير عن قوم ثقات مثل سليمان التيمي، وهشام بن حسان، والحسن، والجريري، وثابت، وقتادة، وكان رجلًا صالحًا وكان يهم في الحديث وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: كان قاصًا، واهي الحديث. وقال أبو عبيد الآجري: قلت لأبي داود: يكتب حديث صالح المري؟ فقال: لا. وقال النسائي: ضعيف الحديث له أحاديث مناكير. وقال في موضع آخر: متروك الحديث. وقال الدارقطني: ضعيف.

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

ونحوه، أو الإعانة على ذلك، أو قطيعة الرحم، أو أن يكون واقعًا في نوع من أنواع الشرك الأكبر وهو لا يشعر عياذًا بالله من ذلك. وبالتالي لا يكون وقع هذا الدعاء مؤثرًا على دفع ضرر الشيطان عن الولد، لأن كلام النبي ﷺ يصدق بعضه بعضًا وعليه فيكون معنى الخبر: لم يضره شيء إن استجاب الله دعاءه بانتفاء الموانع واندفاع العوائق.والله أعلم.

الاستنباط التاسع والثلاثون

من قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] مع حديث أبي سعيد الخدري[1] في قصة رقيته لسيد القوم من الكافرين ـ اللديغ ـ بسورة الفاتحة التي هي أم القرآن والقرآن العظيم، فإنه قد يقول قائل: كيف أن الآية تبين أن القرآن في هذه الآية لا يزيد الكافرين إلا خسارًا، وظاهرها أن الشفاء والرحمة خاص بالمؤمنين مع أن أبا سعيد ـ رضي الله عنه ـ رقى الكافر بالقرآن، وأقره الرسول ﷺ على ذلك وانتفع الكافر بتلك الرقية؟! فنقول وبالله التوفيق والسداد: بيان ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنه لا إشكال ولا تعارض بين الآية والحديث أصلًا لأن القرآن كلام الله عز وجل حقيقة والرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]، فمن تأمل الآية الكريمة يجد أن الآية الكريمة

(١) متفق عليه.

قد وضحت أن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، فالآية تقرر هنا هذه الحقيقة ثم انتقلت إلى بيان قضية أخرى، وهي مسألة استفادة الكافرين من هذا القرآن الاستفادة الحقيقية، وهي انقياد القلوب لله عز وجل، والإذعان لكلامه القرآن العظيم، فهؤلاء بعيدون عنه غاية البعد، وليس لهم منه إلا الخسران المبين. أما مسألة تداوي الكفار واستشفاؤهم بالقرآن العظيم فإن الآية لم تنفه ولم تتعرض له وعليه فلا تعارض بين الآية والحديث فالقرآن يمكن أن يشفى به المؤمنون والكافرون وإن كان حظ المؤمنين منه أوفر لأنه شفاء لقلوبهم وأبدانهم، وطمأنينة لأرواحهم؛ أما الكافرون فغاية ما يحصل لهم هو شفاء الأبدان إن حصل؛ أما القلوب فإنها في عمى وأرواحهم في وحشة من جسومهم وهم في ريبهم يترددون، كما قال الله عنهم في كتابه العزيز، وهذا هو غاية الخسران والعياذ بالله من ذلك.

الوجه الثاني: أن كلمة شفاء الواردة في الآية جاءت نكرة فهي تحتمل أنها للجميع للمؤمنين والكافرين والمعنى إذن: وننزل من القرآن ما هو شفاء عام للجميع. أما قوله تعالى﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] فيحتمل أن تكون الواو عاطفة على القرآن وتكون الجملة استئنافية فيكون التقدير: القرآن شفاء، والقرآن رحمة للمؤمنين، فهنا هذه اللام في للمؤمنين لبيان الاختصاص فالقرآن رحمته خاصة بالمؤمنين الذين آمنوا به وبالنور الذي جاء به. أما على الكافرين فهو عليهم عمى عياذًا بالله من ذلك . وعليه فيكون الشفاء الوارد في الآية عامًّا بينما الرحمة خاصة بالمؤمنين، وبـهذا يزول الإشكال ويتضح الأمر بحمد الله ومنه وكرمه وفضله.والله أعلم.

الاستنباط الأربعون

من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤] وقوله تعالى:﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالمنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ الله وَغَرَّكُم بِالله الغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤]، والاستنباط متعلق بالربط بين قول المنافقين راعنا للنبي ﷺ في الدنيا وقولهم انظرونا للنبي ﷺ والمؤمنين يوم القيامة؛ فنقول وبالله التوفيق:

لقد كان الكافرون والمنافقون يستهزءون بالرسول ﷺ والمؤمنين متمثلًا ذلك في صور عديدة جاءت هذه الآية لتلقي الضوء على نوع منها: وهو سوء الأدب في الخطاب مع النبي ﷺ والمؤمنين متمثلًا ذلك في شخص النبي ﷺ، وذلك بقولهم للنبي ﷺ إذا أرادوا أن ينادوه أو أن يستوقفوه ﴿رَاعِنَا﴾ يريدون بذلك إغاظته ﷺ وإغاظة المؤمنين فهم يريدون بتلك الكلمة أن يصفوه ﷺ بالرعونة فجاءت الآية توضح أدب مناداة النبي ﷺ، ونهي المؤمنين أن يتشبهوا بالذين لا خلاق لهم في كيدهم للرسول ﷺ، وأمرهم ألا يقولوا: راعنا ولكن قولوا: انظرنا فامتثل المؤمنون أمر ربهم وأقلعوا عن تلك الكلمة. أما الآخرون فأقاموا عليها وما تخفي صدورهم أكبر، فإذا كان يوم القيامة واتجه

المؤمنون إلى رضوان الله وجنته؛ أراد المنافقون أن يحسنوا العمل في وقت لا يقبل فيه العمل منهم، فأرادوا أن يحسنوا الكلام وأسلوب النداء والخطاب مع المؤمنين وإمامهم النبي الكريم، لعلهم أن يُجابوا أو يرحموا، فقالوا متأدبين منادين ومخاطبين:﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، هكذا بهذا الأدب الجَمِّ الجميل لأنهم منافقون من ذوي الوجهين، ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا عليه من الاستهزاء، وسوء الأدب مع النبي ﷺ والمؤمنين، فلم يقولوا هذه المرة «راعنا»، ولكن قالوا: «انظرونا».

وهكذا حال المنافق دائمًا يحسن الظن بعقله السقيم، ويعول على ذكائه المكذوب، فهو يتقلب مع تقلب الأحوال ولكن هيهات هيهات أن ينفع ذلك في الدار الآخرة، والعرض على الذي يعلم السر وأخفى الخبير بعباده ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، و لذلك عوملوا بنقيض مرادهم ولم ينفعهم حسن أدبهم وكياستهم، بل استهزئ بهم كما كانوا يفعلون مع المؤمنين في الحياة الدنيا، فقيل لهم:﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، فظنوا أن حسن الأدب والنفاق به أجدى هنا أيضًا، كما كان يجدي معهم في زعمهم في الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة:١٨] فصدقوا ذلك فلما رجعوا قال تعالى:﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ﴾ فكلمة «انظرونا» لما أمروا بها لم يمتثلوها ولما أرادوا أن يعملوا بها في وقت لا ينفع فيه العمل ولا يقبل منهم لم تنفعهم بل أورثهم ذلك نارًا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى، والعياذ بالله منها ولذلك ختم الله الآية ببيان حقيقة الأمر، وأنهم ما كانوا يخدعون إلا أنفسهم، ففتنوا أنفسهم وتربصوا وارتابوا وصدق عليهم الغرور ظنه فاتبعوه فأرداهم والعياذ

بالله من الشياطين ومن المنافقين والكافرين والمشركين وأعمالهم. والله أعلم.

الاستنباط الحادي والأربعون

من الحديث الذي أخرجه الترمذي في «سننه» بسنده عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان النبي ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: **يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه**، قال أبي : قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ فقال : **ما شئت**، قال : قلت : الربع، قال: **ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**، قلت : النصف، قال: **ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**، قال: قلت: فالثلثين، قال : **ما شئت فإن زدت فهو خير لك**، قلت : أجعل لك صلاتي كلها، قال: **إذًا تُكْفَى هَمَّك، ويُغفَرُ لك ذَنبُك» وإسناده حسن.**

الشاهد هنا هو قوله: «أجعل لك صلاتي كلَّها» وإقرار النبي ﷺ له على ذلك وتأكيد ذلك بكفاية الهم وغفران الذنب، فإن هذا الأمر قد أشكل علينا مع أمره ﷺ بالإكثار من الدعاء والحث عليه، وكذلك تعليمه لأمته بعض الأدعية مع بيانه لفضلها، وحث الأمة على المحافظة عليها، وهذه الأدعية كثير منها ما ليس فيها دعاء للنبي ﷺ، فكيف يكون ذلك هل يترك العبد هذه الأدعية كلها ويقتصر في جميع دعائه على الصلاة على النبي ﷺ والدعاء له فقط؟ أم أن ذلك خاص بأبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ فقط دون سائر الأمة؟ أم لأنه ورد خاص لأبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ في وقت خاص سأل عنه النبي ﷺ؟

بكلٍّ قال طائفة من أهل العلم، ولكن ثمة استنباط لطيف انقدح في الذهن المكدود لعله أن يوافق الصواب. والله الموفق وبه المستعان وعليه التكلان، فأقول وبالله التوفيق إن الجمع بين ذلك ممكن:

وذلك بأن يقال: إن العبد له في الدعاء أن يدعو بالأدعية المأثورة عن النبي ﷺ، وله أن يدعو بغيرها من الأدعية ما لم يكن فيها شرك أو قطيعة رحم أو أمر محرم أو منكر من القول، وعلى هذا ينزل قول أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ «أجعل لك صلاتي كلها»، وإقرار النبي ﷺ له على ذلك ـ على الدعاء بغير المأثور ـ لأن عامة هذه الأدعية غير المأثورة؛ إنما تكون في طلب تفريج الهموم، وكفاية الغموم وتحصيل الأرزاق، والتي طريقها مغفرة الذنوب، فإنه لا ينقص من الأرزاق شيء مثل الذنوب والمعاصي، كما بينت ذلك النصوص الشرعية، وعليه فإن ترك العبد الدعاء بغير المأثور، والاستعاضة عن ذلك بالصلاة على النبي ﷺ أفضل في الأجر وأقرب إلى الله عز وجل وأكمل لحصول المطلوب.

أما الدعاء بالأدعية المأثورة، فهي في حقيقتها صلاة للنبي ﷺ؛ لأنه هو الدال عليها والمعلم لها، فهو السبب فيها فيكون الداعي بها داع للنبي ﷺ بعظيم الدرجات ورفيع المنزلة؛ لأن الدال على الخير كفاعله. وعليه فإن دعاء العبد بالأدعية الواردة عن النبي ﷺ ـ والتي منها ما هو دعاء صريح للنبي ﷺ، ومنها ما هو دعاء بالنظر إلى حقيقة الأمر باعتبار أنه ﷺ هو الدال عليها ـ لا تتعارض وحصول المطلوب من حديث أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ من تفريج الهم وكفايته ومغفرة الذنوب.

ولأن العبد إذا ترك دعاءه الاجتهادي لنفسه ليصلي على النبي ﷺ قد انتقل من الأدنى إلى الأعلى، وعرف الحق لأصحابه والفضل لأهله لذلك

كان ثوابه عند الله عز وجل هذا الأجر والفضل العظيم الوارد في هذا الحديث، بينما إذا كان الدعاء بالمأثور، فإن منه ما هو أفضل من الصلاة على النبي ﷺ كقوله ﷺ: **«أفضل الدعاء الحمد لله»**، فحمد الله إذن أفضل من الصلاة على النبي ﷺ.

وكذلك فإن هناك من الأدعية ما هو من صلب العبادة كقول: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي ـ في الركوع والسجود ـ وقوله: رب اغفر لي رب اغفر لي ،وقوله: رب اغفر لي وارحمني، وعافني واهدني، وارزقني واجبرني في الجلسة بين السجدتين على أن هذا الخبر ضعيف.

لكن إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر فمن الذي علمك من البشر أن أفضل الدعاء هو الحمد لله، وأن أفضل الذكر لا إله إلا الله ؟ إنه النبي ﷺ إذن فأنت داع له ضمنًا؛ لأن النبي ﷺ قال كما في «صحيح مسلم» عن أبي مسعود الأنصاري: قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أبدع بي فاحملني فقال: «**ما عندي**»، فقال رجل: يا رسول الله أنا أدله على من يحمله، فقال رسول الله ﷺ: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**» وقال كما في «صحيح مسلم» أيضًا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**».

وعليه فكل دعاء مأثور يحتوي ضمنًا الدعاء للنبي ﷺ.

والخلاصة أنه يقال لمن يدعو بغير المأثور: صلِّ على النبي ﷺ فهو أفضل لك، وأقرب في حصول مطلوبك، على أنه حتى الأدعية التي لم تأت نصًّا هي الأخرى من جملة الخير الذي جاء به النبي ﷺ.

وأما من كان داعيًا بالمأثور فيقال له: أنت مصلٍّ على النبي ﷺ ضمنًا، فامض فيما أنت فيه ولا تنس أنه من المأثور أيضًا مطلق الصلاة على النبي ﷺ التي لا يخفى فضلها، وعليه فلا تعارض ولا إشكال. ولله الحمد والمنة.والله أعلم.

الاستنباط الثاني والأربعون

من قوله ﷺ:«**مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم**» أخرجه أحمد وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ وسنده جيد، وقوله: «**إنما جعل الإمام ليُؤتم به فلا تختلفوا عليه...**»الحديث.«متفق عليه» من حديث أبي هريرة ومن حديث أنس وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين.

فإن هناك مسألة هي محل خلاف بين أهل العلم وهي قضية متابعة المأموم ـ الذي فاتته بعض الصلاة ـ لإمامه من عدمه في حالة سهو الإمام في صلاته وسجود الإمام للسهو بعد السلام، فهل يتابعه هذا المسبوق في السلام الأول ، أم أنه ينهض بعد السلام الأول "وقبل سجود السهو ليأتي بما فاته من الصلاة ثم يسجد للسهو؟ أم أنه يسلم معه السلام الأول ويسجد معه للسهو ثم إذا سلم السلام الأخير قام ليأتي بما فاته ؟"

فأقول وبالله التوفيق والسداد وعليه التكلان : لقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن المأموم إذا كان مسبوقًا، وسجد الإمام للسهو بعد السلام أنه لا يتابعه في سلامه الأول، بل ينهض ليأتي بما فاته من الصلاة محتجين بقول النبي ﷺ عن الصلاة: «**مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم**»،

وقالوا: إن المأموم إذا سلم مع إمامه، فإنه يكون قد قطع صلاته وخرج منها فكيف يعود إليها؟.

فأقول:أما إذا لم يدرك سهو الإمام، فهو إذن لن يعلم هل سيسجد الإمام للسهو أم لا؟ والغالب أنه سينهض فور سلام الإمام مباشرة، فإذا رآه قد سجد فالأولى أن يعود ويسجد معه ويتابعه، وأما إذا أدرك سهو الإمام فهو يعلم أن الإمام سيسجد للسهو، فالقول بأنه يقوم ويدعه فإن في النفس شيئًا من هذا القول إذ أن النبي ﷺ قد قال أيضًا: «**إنما جعل الإمام ليُؤتم به**»، والجمع واجب متى ما أمكن والجمع هنا ممكن بل متيسر دون أي تكلف وذلك على النحو التالي:

سنستصحب معنا في ذاكرتنا حديث ذي اليدين الذي في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ حيث إن النبي ﷺ وأصحابه تكلموا في ما هو من شأن الصلاة، ولهذا قال أكثر أهل العلم: فيه جواز الكلام للحاجة في الصلاة إذا كان في مصلحتها، فاعتبروهم مازالوا في الصلاة مع أن النبي ﷺ وأصحابه تكلموا ثم قام النبي ﷺ، وأكمل بهم الصلاة وسجد للسهو وسجدوا معه بعد السلام هذه مسألة.

والمسألة الثانية: هي أنه لو تكلم الإمام من غير ما حاجة ولا نسيان في الصلاة أو أكل أو شرب بعد السلام الأول، وقبل السلام الثاني الذي بينهما سجود السهو لبطلت صلاته باعتبار أنه مازال في صلاته، فإذا تعين أن الإمام مازال في صلاته، فالمأموم تبع له مقتد به حتى يفرغ الإمام تمامًا من صلاته، ومن المعلوم أنه لا أحد يقول إن الإمام إذا سلم سلامًا سيسجد بعده للسهو. أن صلاته قد انقضت بالسلام الأول وعليه وعملًا

بحديث الرسول ﷺ: «**إنما جعل الإمام ليُؤتم به فلا تختلفوا عليه**»، فيلزم المأموم المسبوق أن يسلم مع إمامه، ثم يسجد للسهو معه، ثم إذا سلم إمامه السلام الثاني والذي تنقضي به صلاته تمامًا وتنقطع صلته بالمأمومين، ويصبح المسبوق بعده منفردًا عندها يقوم المسبوق بإتمام ما فاته من الصلاة ولا لوم عليه ولا حرج لأنه يكون قد تابع إمامه حتى فرغ من صلاته تمامًا عملًا بقول النبي ﷺ: «**إنما جعل الإمام ليُؤتم به**».

ثم إن المأموم لا يجوز له إذا دخل مع إمامه في الصلاة مسبوقًا كان أو داخلًا مع إمامه من أول الصلاة أن يخرج على إمامه بحال بدون عذر شرعي إلا إذا سلم الإمام السلام الأخير الذي تكون صلاته قد انتهت به، وحل له كل ما حرم عليه قبل هذا السلام الأخير بسبب كونه في الصلاة؛ لأنه لا يحل له أن يفعل شيئًا قد حرم عليه بالتكبير ما لم يأت بالتسليم الذي يكون به التحليل، ومعلوم أن السلام الوارد في الحديث والذي به يكون التحليل ليس هو السلام الأول الذي سيعقبه سجود السهو، بل هو السلام الذي يكون بعد سجود السهو وعلى هذا، فيلزم من هذا القول أن يتابع المأموم إمامه في كل أحوال الصلاة، ومنها سجود السهو سواء كان بعد السلام، أو قبله ثم ينهض المسبوق ليأتي بما فاته من الصلاة عملًا بالأخبار، وجمعًا بين الأحاديث.

إذن حديث «**وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم**» المقصود بالتسليم هنا التسليم الذي به يحصل التحلل الكامل لا الجزئي من الصلاة، وتنقطع به الصلة بين المأموم وإمامه ويحل لمن أتى به كل ما حرم عليه بتكبيرة الإحرام، وبهذا يزول الإشكال. الله اعلم.

الاستنباط الثالث والأربعون

من قوله ﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا الآية»** أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مع قبوله ﷺ لقولهم في ما قالوه عن يوم عاشوراء من أنه يوم نجى الله فيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقومه من فرعون فصام النبي ﷺ ذلك اليوم وأمر بصيامه كما في «الصحيحين» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسئلوا عن ذلك، فقالوا هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، فنحن نصومه تعظيمًا له، فقال النبي ﷺ: «نحن أولى بموسى منكم» فأمر بصومه.

والاستنباط متعلق بالجمع بين هذين الخبرين، وهو أن يقال:

إن النبي ﷺ أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم في الأخبار التي ليس لدينا دليل فيها على صدقهم أو كذبهم ـ ذلك لأن ما معهم من العلم ليس كله باطلًا، بل فيه بعض الحق ولكنهم حرَّفوا كتابهم، وفرقوا دينهم، فنسخ الله ذلك كله بالإسلام والقرآن، وبين أنه لا يقبل من أحد دينًا غيره، كما أنه لن يقبل من أحد من أمة محمد ﷺ ـ والذي بعث إلى الإنس والجن عامة ـ شريعة غير شريعة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]ـ.

أما الأخبار التي جاءنا دليل صحيح يدل على صدقهم صدقناهم بما قالوا، وأخذنا بما جاءنا في شريعة محمد ﷺ وعملنا به وما جاءنا فيه نص بكذبهم كذبناهم فيه، ورددناه عليهم، وأمر يوم عاشوراء وما جرى فيه هو من هذا القبيل ذلك لأن الله

عز وجل قد قال في محكم التنزيل عن النبي ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣، ٤]، فلو لم يكن عند النبي ﷺ يقين أن هذا الذي قالوه صحيح لما اتبع الظن، ولما أمر أمته وشرع لهم صيام ذلك اليوم، بل هو الوحي الأكيد من عند الذي لا تخفى عليه خافية الله عز وجل القائل عن نفسه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

إذن فصيام يوم عاشوراء هو مما جاء الوحي بالأمر به والحث عليه فنحن نصومه من هذا الباب وليس من باب تصديق أهل الكتاب فيما قالوه.

فأخبار بني إسرائيل على ثلاثة أحوال:

فإما أن يأتي به شرعنا فلا حرج في روايته استئناسًا لا احتجاجًا وأما إن خالفه شرعنا فتحرم روايته ويجب طرحه والتنبيه عليه والتحذير منه؛ لأنه قد يكون من الشرع المحرف، وإن لم يكن كذلك فإن الراجح أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يخالفه شرعنا وأما إذا كان المروي مما سكت عنه شرعنا، فهذا نرويه ولا حرج ولكن لا نصدقه ولا نكذبه حتى لا نصدق باطلًا أو نكذب حقًّا. والله أعلم.

الاستنباط الرابع والأربعون

أن القرآن العظيم الذي هو كلام رب العالمين والسنة المطهرة التي هي كلام ـ من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ـ سيد المرسلين جاءا ليخاطبا جميع أصناف

البشر، وجميع العقول والمفاهيم وجميع المذاهب والملل والنحل بالحجة والبرهان والبيان، فجاء الخطاب موجهًا إلى المؤمنين والكافرين والمشركين وأهل الكتاب و المنافقين والملاحدة الدهريين كل بما يناسبه من أسلوب الخطاب والمجادلة والمحاورة بما يحصل به الهدى والبيان، لمن أراد الله هدايته من العباد والاستنباط متعلق ببيان أسلوب الشريعة في خطاب كل صنف من هذه الأصناف من الناس كل على حدة على وجه الإجمال الأمر الذي يعين الدعاة إلى الله في تحديد نوع الخطاب والحوار الذي ينبغي أن يخاطب به كل صنف من هذه الأصناف مما يوفر الوقت والجهد يوم أن يعرف الداعية مَـنْ هذا الذي أمامه، وأيُّ نوع من العباد هو، وأيُّ فكر يحمله فيسهل الأمر وتحصل الهداية بإذن الله عز وجل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ذلك لأن أسلوب الدعوة في الكتاب والسنة لا شك أنهما أجدى وأفضل الوسائل في أسلوب الدعوة والحوار مع العباد؛ لأنها تنزيل من حكيمٍ حميدٍ فهو الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فنقول وبالله التوفيق والسداد وعليه التكلان .

الصنف الأول :- المؤمنون من الإنس والجن الذين ثبت لهم عقد الإيمان، فقد خوطبوا بما يرسخ قضية الإيمان في قلوبهم من مواعظ وقصص وعبر، وزواجر وروادع، وذكر لنعيم الجنة، وما أعد فيها للمؤمنين وما فيها من عناية الله عز وجل بهم. نسأل الله من فضله العظيم وما أعد للعاصين في جهنم والعياذ بالله منها، فهم إذن بين الوعد والوعيد والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والرغبة والرهبة، حتى يلقوا ربهم فيأمنوا الأمن الذي لا خوف بعده قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

الصنف الثاني :- الكافرون والمشركون فهؤلاء خُوطِبوا بالأمثلة

والأقيسة التي ضربها الله في كتابه، والتي فيها بيان بطلان قضية الشرك عقلًا ولذلك كثيرًا ما تختم تلك الآيات بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]، وما شابه ذلك من مخاطبة للعقول السليمة السوية التي تقبل الحق، وتذعن له مع بيان لقصور تلك الآلهة الباطلة وجمودها وضعفها، وأنها لا تملك من الأمر شيئًا وذلك من خلال المناظرات المذكورة في القرآن، كمناظرة إبراهيم الخليل مع أبيه وقومه، مع تذكيرهم بالإله الحق الذي يعبدونه مع غيره أنه هو الذي ينجيهم في ظلمات البر والبحر مع لفت انتباههم أن هذا الإله الحق يعلم ما تكنه صدورهم، فيذكر لهم حقائق قلوبهم وأنهم في حالة الضنك والضُّـر يجدون قلوبهم متوجهة بكليتها إلى الله الواحد القهار، وينسون ما يشركون معه من المعبودات الضعيفة الهزيلة الباطلة التي لا تملك أن تنقذ من يعبدونها، بل لا تستطيع أن تدفع الضُّر عن نفسها فضلًا عن غيرها وعليه فإن الذي يعين في السَّـراء وينقذ في الضراء هو وحده المستحق للعبادة وحده دون ما سواه سبحانه وتعالى عما يصفون ويشركون .

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِّيكُم مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ قُلْ اللهُ يُنْجِيكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٦٣ ، ٦٤] ونحو ذلك من الآيات.

الصنف الثالث :- المنافقون، وهؤلاء يكفي لإيمانهم لو أراد الله بهم خيرًا أن يتفكروا في تلك الآيات التي تخبرهم وتحدثهم عما يدور في عقولهم وتحكي لهم بأدق الأوصاف ما يجول في صدورهم، فكيف وأنى لبشر أن يعرف

مكنونات النفوس والعقول، وما تخفي الصدور من عند نفسه؟! هذا أمر محال مستبعد ممتنع؛ إلا أن يكون الخبر صادرًا من حكيم خبير الذي ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] الذي خلق تلك النفوس ويعلم مستقرها ومستودعها؛ ولكن أين العقول التي تنتبه لمثل هذا؟ ولكن أقصى ما يفعله القوم إذا بهتتهم تلك البراهين والأسرار العجيبة أن يستغشوا ثيابهم، ويسدوا آذانهم، ويردوا أيديهم في أفواههم: ﴿وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿وَمَن يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]، فسبحان من أعمى القلوب وطبع عليها وهدى إليه من شاء . نسأل الله الهداية والبعد عن الضلال .

الصنف الرابع : – أهل الكتاب وهؤلاء خاطبهم بما يعرفونه من كتبهم لو أنهم أرادوا الحق والاستبصار فيه، وبما فيها من التناقضات والتحريفات والقصص الهابطة والأقوال الشائنة للأنبياء والمرسلين، وحجم الدجل والكذب الذي حَوَتْـه أقوال قُسُسِـهِم ورُهبَانِـهِم كما أنه خاطبهم خطابه للمشركين، لأنهم منهم وذلك خاصة في قضية الثالوث المشئوم الذي ادعوه بزعمهم وهم فيه كاذبون.

فبين لهم الحق في ذلك بما يستقيم مع العقول الصحيحة والفطر السليمة لأنه هو الحق الذي جاء من عند الحق سبحانه على لسان من لا يقول إلا الحق ﷺ ، كما أنه ذكرهم تلك النعم العظيمة والمنن السابغة التي امتن بها على بني إسرائيل؛ خاصة وأنه فضلهم على العالمين وأراهم من المعجزات ما لم يحصل لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيْكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَى جَاءَهُمُ الْعِلَمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس:٩٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الجاثية:١٦ ، ١٧]؛ فتارة مائدة من السماء تنزل، وتارة إحياء للأموات، وأخرى مسخ للإنسان إلى القردة والخنازير. أمر شاهدوه بأنفسهم منن و أفضال ومعجزات عظيمة ،ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ذلك لمن كان له عقل أو فهم سليم وأراد الحق المبين أما من كان بخلاف ذلك، فما الحيلة فيمن أراد الله أن يغويه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الصنف الخامس : – الملاحدة الدهرية فهؤلاء بما أنهم ينكرون كل شيء حتى وجود خالق مدبر وراء هذا الكون العظيم الذي كل شيء فيه يشهد بوجود ذلك الخالق العظيم المدبر ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، فهؤلاء لا حيلة معهم في ذكر الآيات العامة في القرآن العظيم، بل لا بد معهم من جدال على مستوى الحقائق العلمية الخاصة لأن القوم لا يؤمنون بغيب ولا بإله ولا بكتاب؛ بل لا يؤمنون إلا بالماديات، وبما يرونه ماثلًا أمامهم من الحقائق التي تشاهدها أعينهم فهم فيما يزعمون لا يؤمنون، إلا بمنطق البحث العلمي، وأن كل ما لا يثبت بعلومهم القاصرة، فهو غير موجود أو أنه خرافة محضة والعياذ بالله من ضلال الأفهام وسقم العقول ـ فليت شعري هل يرى القوم عقولهم؟! حتمًا سيقولون: لا. فنقول لهم على مبدئكم ومنطقكم الفاسد: إذن أنتم ليس لكم عقول، وكذلك يقال في الروح التي لا يرونها والهواء والروائح التي يشمونها وهلم جرًّا ـ ولهذا جاء الخطاب في القرآن العظيم والسنة المطهرة مقررة للحقائق العلمية على لسان نبيٍّ أُميٍّ ـ ولكنه علم المتعلمين ـ يعيش

في صحراء قاحلة بعيدة عن كل اكتشاف أو اختراع، بعيدة عن الحضارات القائمة آن ذاك، فجاءت الآيات المقررة للحقائق العلمية في الإنسان والنبات والحيوان والأرض والسماء ويُلاحظ قلة هذه الحقائق في القرآن العظيم مقارنة بالآيات الأخرى، وذلك والله أعلم لأن هذا الصنف من العباد هو أيضًا قليل على مر العصور والأزمان مقارنة بالأصناف الأخرى، فالمنكر لوجود الخالق العظيم المدبر مع عظمة ما يشاهده من الأدلة والبراهين الدالة على وجوده وقدرته وتصرفه وتدبيره للمخلوقات أمر يعتبره حتى المشركون والمنافقون نوعًا من الخبل والعته والمكابرة والمعاندة التي لا طائل من ورائها، ولذلك كان كافيًا أن يذكر لأمثال هؤلاء بعض تلك الحقائق العلمية الدقيقة والعظيمة التي لا يعلمها إلا الذي خلقها وأوجدها من العدم الله عز وجل، وترك لهم المجال في البحث والتنقيب ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] حتى بعد طول الجهد و العناء يَـصِـلُـونَ إلى بعض تلك الحقائق ويلبثون فترة بل فترات أخرى حتى تتجلى لهم حقيقة أخرى ذكرها هذا الكتاب المعجز ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] حتى لا يفرحوا بما أوتوا من العلم فكأن القرآن يقول لهم بعد هذا العناء والجهد الكبيرين: قد كفيتكم مئونة ذلك ومشقته حيث ذكرته لكم على لسان نبيٍّ أُميٍّ ولد في الصحراء بعيدًا عن كل اكتشاف، وعن كل اختراع وعن كل وسائل البحث العلمي لعموم الجهل في زمنه وانتشار الخرافة والدجل والشعوذة والسحر: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فذكر لهم أطوار خلق الإنسان، ومدة كل فترة بدقة وتحديد مُتناهِيَين، ويذكر لهم ما تحت الجبال من الأوتاد العظيمة ويذكر لهم ما بين البحار من البرازخ العجيبة ذات التبادل بالنسب الدقيقة حتى لا يبغي أحدها على

الآخر، وما في الآفاق من السيالات والشحنات والتيارات والنبضات: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، ويذكر لهم مكان أدنى وأخفض الأماكن في الأرض: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ [الروم: ٢، ٣] ويذكر لهم موقفًا حرجًا مهيبًا لا يصفه إلا الخالق اللطيف الخبير، وهو تلك اللحظات التي تمر بالسفينة وركابها عندما يغشاهم موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، مع أن النبي ﷺ لم يركب البحر على أن هذا الموقف الرهيب العصيب قل من ينجو منه، ومن نجا منه فلا يمكنه بحال أن يصف ذلك الموقف بهذه الصورة الدقيقة، وذلك الوصف العجيب لأنه والحالة هذه يكون مشغولًا بنفسه وخلاصها، وقل من يملك شعوره عندها، ولم يكن ليقف وينظر ويتأمل حتى ينقل ويصف قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فسبحان من بهرت حكمته العقول وأخذت قدرته القلوب جل في علاه سبحانه وتعالى عما يصفون، فهذه بعض الدلائل العلمية والإعجازات القرآنية، فهذا في علم الأجنة أدق العلوم الطبية، وهذا في علوم الجيولوجيا، وذاك في علم النبات، وهذا في علم البحار، وهذا في علم الفلك، وهذا وهذا ... إلى ما في هذا القرآن العظيم من الإعجازات التي لا يملك هؤلاء الملاحدة الدهرية إلا أن يَفْغَروا أفواههم أمامها، وينطقوا ويعترفوا بوحدانية الله، ووجود هذا الخالق المتقن المدبر بكيانهم قبل لسانهم هذا إن أرادوا الحق أما إن كان هو الهوى واتباعه فما هي الحيلة قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ الله أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

الصنف السادس : – هم الذين في قلوبهم شك وريب، و الذين هم من أبناء المسلمين، ولكنهم أخذوا هذا الدين عن طريق الوراثة من الآباء، فهم لبعدهم و إعراضهم عن القرآن وتدبره، والسنة والنظر فيها، مع قراءتهم في كتب الملاحدة والدهرية، وانبهار بحضارتهم المزيفة وأفكارهم الخبيثة، وعقولهم الفاسدة: دخل قلوبهم نوع شبهة جعلتهم في حيرة من أمرهم والعياذ بالله من ذلك .

ومن يكن الغراب له دليلًا يمر به على جيف الكلاب

فهذا الصنف ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : من أشرب قلبه والعياذ بالله هذه الفتنة، وقبل تلك الشبهة فوصل إلى طريق مسدود فألحد بالله والعياذ بالله من ذلك، وهذا يخاطب بما خوطب به الصنف الخامس المتقدم الذكر .

الثاني : فهم الذين يعيشون في صراع داخلي يتمنى معه أحدهم أن يموت على أن يقبل هذه الأفكار الخبيثة، وتلك الشبه والخطرات التي تعرض له فتراه عياذًا بالله العظيم ضائق الصدر منقبض النفس كسير الجناح مهيض الجانب قد أظلمت الدنيا أمامه، وأصبح لا يرى الأشياء على حقيقتها، فهذا يخاطب بالإخبارات النبوة وحقائقها فيُدخل معه من باب إثبات النبوات، وتلك الأمور المغيبات التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ يراها واقعة أمام ناظريه من تقارب الزمان، وحصول الفتن، وجور ذوي السلطان، وتطاول البدو في البنيان، وانكباب الناس على الدنيا، وتبعية المسلمين لليهود والنصارى، وملاحم آخر الزمان، وظهور الدجال، ونزول المسيح عليه السلام، وظهور المهدي وما إلى ذلك من الإخبارات الصادقة المذكورة في السنة المطهرة التي منها ما وقع ومنها ما سيقع في القريب العاجل بإذن الله عز وجل فهذا من أكثر ما

يرسخ قضية الإيمان عند هذا الصنف من الناس كما أنهم يخاطبون أيضًا بما خوطب به الصنف الخامس وإن كانوا ليسوا منهم إلا أنه يساعد على حصول المطلوب .

الصنف السابع : - وهم الذين تأثروا بلوثة الملاحدة من علماء اليونان والمناطقة والمتفلسفة الدهريين، فقرءوا كتبهم وناظروهم، فوقعوا في حبائلهم فسلكوا مسلكهم في باب الأسماء والصفات، فَسُمُّوا «بالمتكلمين» فمنهم من استغرق في أفكارهم وأخذها على علاتها حتى ألحد مثلهم، فعطل الخالق العظيم عن جميع أوصافه وأسمائه، فصار يعبد العدم وهذا هو عين الإلحاد في أسماء الله وصفاته، ومنهم من أخذها بشيء من الحذر ناقدًا لها في بعض جوانبها قابلًا للبعض الآخر، فوقع في نوع من التعطيل ونوع من التمثيل والتشبيه، فشابهوا عبدة الأوثان من جهلة أهل الكتاب، وأمثالهم من جهة وأهل النفي والإلحاد من جهة أخرى، فهؤلاء وأمثالهم يخاطبون أولًا بإثبات العصمة للرسول ﷺ من أن يكون لم يُبَلِّغ البلاغ المبين في الذي أمره به رب العالمين في أسماء الله وصفاته، وأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فهموا الفهم الصحيح لأسماء الله وصفاته، كما أراد الله عز وجل بما علمه لهم رسول الهدى ﷺ، ثم يخاطبون بالآيات والأحاديث المثبتة للأسماء والصفات على الوجه الذي يليق بجلال الله وعظمته، والتي ارتضاها لنفسه فهو أعلم بنفسه سبحانه وتعالى عما يقول المعطلون والمؤولون والمحرفون والمشبهون والممثلون علوًّا كبيرًا، وذكر الآيات الدالة على نفي الشبيه والنظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأن كل ما نفاه الله عن نفسه الشريفة من صفات النقص متضمنة لإثبات ضدها من صفات الكمال؛ لأن النفي المحض للنقص ليس بمدح بل الكمال والمدح في نفي النقص وإثبات الكمال، وبما أن هذا

الباب متلقى عن طريق الإخبارات الصادقة فلا مجال للعقل في ردها بل لابد من التسليم والإذعان طالما أن المؤمن مقر بصدق المخبر وأمانة الناقل . نسأل الله الثبات على الحق حتى الممات إنه ولي ذلك والقادر عليه . والله اعلم .

الاستنباط الخامس والأربعون

من قوله تعالى:﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢]، وقوله تعالى:﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۞ فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۞ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: [٢٨ - ٣٠] فالذين لن يستجيبوا لهم أحد ثلاثة أصناف:-

الصنف الأول: الملائكة والمرسلون والنبيون والأولياء والصالحون، وهؤلاء كلهم من عباد الله الصالحين، ولذلك فهم أنفسهم: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، كما أنهم عن عبادة هؤلاء لهم غافلون فهم يعلمون أنهم عباد لله، وليس لهم من الملك والخلق والتدبير والتصريف والأمر شيء؛ لذلك فهم مقبلون على ربهم عاملون في مراضيه غافلون عما سواه جل في علاه ناهون عن عبادتهم وعن عبادة غير الله آمرين بعبادة الله وحده لا شريك له، ولذلك سيتبرءون من هؤلاء العباد يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، كقوله

تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]. وقوله تعالى:﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

الصنف الثاني : الأصنام والأوثان من الأحجار والأشجار وما شابه ذلك، فإنهم بين أحجار صماء بكماء جامدة لا حياة فيها ولا روح ولا حركة، وبين أشجار مسخرة يقطعونها متى شاءوا، ويفعلون بها ما يشاءون وبين أشياء يصنعونها بأيديهم ثم يعبدونها، وربما استعملوها أو أكلوا منها، ثم إذا فرغوا منها أو شبعوا أعادوها كما كانت، ثم عبدوها كمن يتخذ إلهًا من التمر ثم يعبده، وكلهم بالجملة لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. فضلًا عن أن ينفعوا غيرهم، كما قال تعالى: ﴿واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُون مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان:٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُو الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:٧١]، ولذلك فهم أيضًا غافلون عن عبادة هؤلاء العباد، ذلك لأنهم لا يعون ولا يعقلون، ولا

يستطيعون ولا يملكون من الأمر من شيء، فكيف يستجيبون لهم؟ كيف والأحجار والأشجار والكواكب معهم في النار؟! زيادة لهم في التنكيل والعذاب؟ لا لأنهم يعذبون في النار معهم، كلا؛فهم كانوا عن عبادتهم غافلين، لأنه ليس كل ما في النار معذب ففي النار ملائكة العذاب الذين لا يحصيهم إلا الله، وهم موكلون بتعذيب الكافرين وليسوا هم فيها من المعذبين، ولكن: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

الصنف الثالث : طواغيت الإنس والجان فهم أولئك الطواغيت الذين نصَّبوا أنفسهم آلهة من دون الله، ودعوا إلى عبادة أنفسهم، ونصبوا أنفسهم مشرعين للناس من دون الله، واتخذهم الناس أندادًا من دون الله، أو مع الله سواء دعوا إلى ذلك، أو أنهم سكتوا ورضوا بما يفعله الناس بهم مما هم ليسوا له بأهل من تنصيبهم آلهة ومشرعين للعباد من دون رب العباد؛ فالساكت كالراضي كالفاعل، كما أنه منهم من ادعى علم الغيب وزعم أنه يقضي الحوائج ويفرج الكربات، ويغيث اللهفات في الحياة، وبعد الممات ومنهم من زعم أن بيده الإحياء والإماتة وتصريف الكون مع الله، أو دون الله ممن يعرفون بالقطاب والأغواث، وآخرون قننوا القوانين الوضعية وحكموا بالطاغوت وحملوا الناس على ذلك رغبة ورهبة، فهذا الصنف من الطواغيت لن يستجيبوا لمتبوعيهم؛ لأنهم انكشفت لهم الحقائق وظهرت لهم حقارة أنفسهم وذلهم وهوانهم وصغارهم، وعلموا أنهم عباد لله وحده، وأنهم ليس لهم من الأمر شيء ولم يكن ليخفى هذا عليهم في الدنيا، ولكنهم كذبوا على أنفسهم، ثم صدقوا تلك الكذبة بأن لهم من الأمر شيئًا إمعانًا في الضلالة والغواية وغرهم بالله الغرور.

أما أتباعهم[١]، فيومئذ تتبين لهم وتنكشف أمامهم الحقائق، فيعودون على أنفسهم بالتوبيخ ويحكمون على عقولهم بالجنون وعلى أحلامهم بالسفه ويقولون:﴿تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ ۞وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٩] .

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]

والتابعون والمتبوعون هؤلاء وهؤلاء كلهم سيدخلون جهنم داخرين يلعن بعضهم بعضًا ويتبرأ بعضهم من بعض، كلما دخلت أمة لعنت أختها، كما قال تعالى:﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ۞ وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ۞ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٣٨ ـ ٤١] .

---

(١) تنبيه هام: ما زال العلماء من سلف هذه الأمة الأخيار الأطهار إذا تكلموا عن أهل القبلة ممن وقعوا في نوع من أنواع الشرك يشترطون في إلحاق حكم الكفر، أو الشرك بهم إقامة الحجة عليهم المُعَبَّر عنه عندهم بتوفر الشروط، وانتفاء الموانع، وإلا فلا يصمون المعين من أهل القبلة بالكفر ولا الشرك، ففرق عندهم بين الكلام عن النوع والكلام عن العين، فرضي الله عن سلفنا الصالحين، ونشهد الله على حبهم. والله أعلم

وقال تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۞ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].عياذًا بالله من هذا الحال وذلك المآل. الله أعلم.

الاستنباط السادس والأربعون

من الحديث الذي أخرجه البخاري، ومسلم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا**» .

والحديث الآخر الذي أخرجه أحمد، ومسلم من حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنًّا، ولا يَؤُمَّنَّ الرجلُ الرجلَ في سلطانه، ولا يقعد على تكرمته إلا**

بإذنه».

فإن في الربط بين هذين الحديثين، والتأمل فيهما يتبين لنا أن الإمام أفضل من المؤذن، وهذا هو الاستنباط حيث إن الرسول ﷺ ربط أحقية الإمامة بالأكمل في الديانة والعلم، فجعل الإمامة متعلقة بأشرف العلوم وأجل الأمور؛ العلم بالكتاب والسنة فهي الميزان في تحديد الإمام، بينما لم يجعل هذا القيد والفضل العظيم في حالة تحديد من الذي يؤدي الأذان، بل جعل القرعة التي هي الاستهام كافية حتى ينال المرء فضل أن يؤدي الأذان، فلو أجريت القرعة فوقعت على أقل القوم فقهًا وعلمًا وديانة للزم إعطاؤه فرصة أن يؤدي الأذان، وذلك بخلاف الإمامة فإنه لا مجال للاقتراع فيها بل لا يتقدم القوم إلا أقرؤهم وأعلمهم بالكتاب والسنة.

وهكذا حسب التسلسل الوارد في الحديث. وهذا اختيار جماعة من أهل العلم ومما يقوي هذا الترجيح أن الرسل وعلى رأسهم نبينا صلوات الله وسلامه عليهم كانوا أئمة ولم يكونوا مؤذنين. والله أعلم.

الاستنباط السابع والأربعون

من قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]

فإن العبد إذا أخلص الدعاء لله الواحد القهار أجاب الله دعاءه إجابة إحسان ورحمة، أو إجابة حلم واستدراج.

فأما الأولى منهما: فللمؤمنين إحسانًا إليهم ورحمة بهم، وأما الثانية فهي: للعصاة والفاسقين والكافرين وأشباههم حلمًا منه، وقدرة عليهم، واستدراجًا لهم.

وهذا كله في زمن المهلة في هذه الحياة الدنيا، أما في الدار الآخرة فلما لم تكن الآخرة دار عمل لأمثال هؤلاء، وإنما دار جزاء وحساب لهم، فإن من طلب شيئًا وأخلص في قصده، وجمع له قلبه وجوارحه طلبًا لإرضاء ربه، فإنه يجاب أيضًا، ولكن بخلاف مراده وبنقيض قصده ذلك لأنه أتى بالعمل في غير وقته ولا مكانه، فلما استغاثوا وأخلصوا ذلك لربهم أجابهم وأغاثهم، ولكن بماذا :﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ عياذًا بالله من ذلك، وهذا هو الرد والجواب والمصير لكل من صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله في الحياة الدنيا، ثم أراد أن يخلصها لله وحده لا شريك له في الدار الآخرة فليس له إلا نقيض مراده وخلاف مبتغاه وقصده كما قال تعالى:﴿قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠] والله أعلم.

الاستنباط الثامن والأربعون

من قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ الله﴾ [الحشر: ٢١] ـ وهي من الأمثلة التي ضربها الله تعالى في كتابه وأمرنا أن نتفكر فيها ـ وقوله تعالى:﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، و قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] والحديث المتفق عليه من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فقال: **أخبروني بشجرة تشبه** ـ أو كالرجل ـ **المسلم لا يَتَحَاتُّ ورقها ولا ولا ولا، تؤتي أكلها كل حين**.قال ابن عمر:فوقع في نفسي أنها النخلة،ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم. فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله ﷺ: **هي النخلة**».

فهذه النصوص وغيرها تدل دلالة واضحة على تلازم الإيمان مع العمل وعلاقة القلب بالجوارح، وأنهما لا ينفكان عن بعضهما البتة، فمتى وجد الإيمان وجد العمل، ومتى عدم العمل مع القدرة عليه والتمكن منه والعلم به عدم الإيمان حتمًا.

وبيان ذلك هو أن الله عز وجل قد أخبر في الآية الأولى عن الجبل أنه لو أنزل عليه هذا القرآن لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله، فالخشوع والخشية

من الأعمال الباطنة والتصدع من أعمال الظاهر، وهذا تلازم واضح وظاهر بين الباطن والظاهر، فإذا خشعت البواطن وخشيت ربها لازم ذلك عمل ولابد في الظاهر أما البواطن الجامدة القاسية إنما تورث جمودًا وقسوة ظاهرية، ولابد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، أما إذا كان فيها إحساس وتأثر في الباطن لازم ذلك تأثر الظاهر ملازمة تامة:﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله﴾، فلما حصلت الخشية لازم ذلك الهبوط.

وكذلك قلب المسلم مع جوارحه وأعماله، فالقلب الذي رسخت فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلابد له من عمل يصاحب ذلك ويلازمه إذ لا يتصور قلب مؤمن موحد ممتلئ بالإيمان لا يعمل شيئًا من مراضي الله ورسوله، ولذلك شبه الرسول ﷺ المؤمن بالنخلة التي لا يتحات ورقها نعم النخلة التي لا ينقص منها شيء لكمال بركتها ونفعها، فكما أن النخلة لا تسمى نخلة إذا كانت بدون أوراق ولا ساق ولا جذور، فكذلك المسلم لا يكون مسلمًا حتى يتلازم عنده إيمان القلب مع عمل الجوارح.

وكما أنه لا يتصور نخلة ذات جذور عظيمة ضاربة في الأرض، وفي الظاهر صخرة صماء لا نفع فيها ولا حركة ولا فائدة فكذلك لا يتصور قلب ممتلئ بالإيمان وخشية الرحمن وحب الدين وأهله، والإسلام والمسلمين، وهو مع ذلك لا يصلي ولا يؤدي فرائض الله عز وجل، ولا يحكم بشرع الله عز وجل، فالأعمال ملازمة للإيمان وليست ثمرة له كما تقول المرجئة والعياذ بالله منهم، ومن قولهم الخبيث ـ حتى أنهم أدخلوا في الإسلام من لم يركع لله ركعة، ولم يفعل من الخير شيئًا، ومن حكم بشريعة الكافرين ونحا شرع رب العالمين ـ فالجبل لما خشي وخشع تصدع، والأحجار لما خشيت هبطت، فأنى لقلب أيقن بلا إله إلا الله وصدق بها وأحبها أن يعمل فيما ينافيها بل فيما ينسخها ويلغيها؟

هذا محال محال، فالجذور لا تخرج إلا الأشجار والقلوب المؤمنة لا تعمل بجوارحها عمل الكفار[١]. والله أعلم.

الاستنباط التاسع والأربعون

تنبيه على ثلاث مقولات يكثر ورودها في الكتب العلمية:

المقولة الأولى: قولهم : (قد سد الله كل طريق موصلة إليه؛ إلا طريق النبي ﷺ)، فإن مقتضى هذا الكلام أن هناك طرقًا توصل إلى الله جل وعلا، ولكن الله تعالى قد سدها، ولم يبق ولم يقبل إلا طريق محمد عليه الصلاة والسلام .

وهذا المعنى فاسد ولا شك؛ إذ إنه ليس هناك طريق توصل إلى الله أصلًا سوى طريق محمد ﷺ، كما أن هذا المعنى فاسد من وجه آخر، وهو أن مقتضاه أن هناك طرقًا سدها الله على عباده، وهذا ينافي أسماء الله وصفاته، كالرحيم وأرحم الراحمين والكريم، وينافي قوله تعالى:﴿وَالله يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، وغير ذلك من النصوص.

وعليه فينبغي أن يقال إنه ليس هناك طريق موصلة إلى الله تعالى إلا طريق محمد ﷺ. وهذا معنى دقيق فتأمل.

---

(١) أهل السنة والجماعة يفرقون بين النوع والعين، فقد يقع المسلم في عمل مكفر، ولا يكفر لوجود مانع يمنع من إلحاق الحكم به، أما من انتفت في حقه الموانع وتوفرت الشروط، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه عياذًا بالله العظيم من الحور بعد الكور، ومن الكفر بعد الإسلام. كما أنهم يفرقون بين الكافر الأصلي، وبين المسلم المليِّ الذي تلبس ببعض أفعال الكافرين، وبسط هذا في غير هذا الموضع. وراجع إن شئت كتابي «إسعاف السؤول بشرح ثلاثة الأصول».

المقولة الثانية: قولهم (جاء الإسلام فأقر ما كان عليه أهل الجاهلية من مكارم الأخلاق)، فإن هذه المقولة تدل على أن هذه المكارم التي كانت عند أهل الجاهلية عملوا بها من عند أنفسهم، فجاء الإسلام فأقرها وأكد عليها، وهذا المعنى فيه نظر؛ فإن شأن الجاهلية كله شرٌّ، ولهذا ما وردت الجاهلية إلا في معرض الذم والتحذير منها، كقوله تعالى:﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقوله تعالى:﴿وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وكقول النبي ﷺ لأبي ذر ـ رضي الله عنه ـ في «الصحيحين»: «**إنك امرؤ فيك جاهلية** ». وكما في «صحيح مسلم» عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب**».

وما كان في الجاهلية من خير فهو مأخوذ عن الأنبياء والمرسلين ممن كان قبلهم لاسيما إبراهيم الخليل، فإنهم كانوا ينتسبون إليه فلا يصح نسبة الأخلاق الفاضلة إلى أهل الجاهلية أبدًا، بل يجب أن تنسب إلى دين الإسلام وهدي الأنبياء والمرسلين، فتأمل هذا المعنى فإنه نافع ومفيد.

المقولة الثالثة: قولهم:(إن المشركين الأولين إنما كان خللهم في توحيد الألوهية، وفيه كانت الخصومة مع الرسل وأتباعهم المؤمنين، ولأجله سلت سيوف الجهاد)، فهذا الكلام فيه نظر إذ إن ظاهره أن أهل الجاهلية ما عندهم خلل إلا في توحيد الألوهية، وهذا المعنى باطل؛ فإن الله تبارك وتعالى قد قص

علينا في القرآن العظيم أن القوم كان عندهم خلل في جميع أقسام التوحيد، وأن الخلل في العبودية عندهم كان عامًّا، ولكن نعم كان الأظهر من حالهم هو الخلل في توحيد الألوهية. هذا حق؛ ولكن أن نحصر ذلك فيه هذا الذي أردنا أن ننبه على الخطأ فيه قال تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩] "أليس هذا خللًا" في توحيد الربوبية؟ "الجواب: بلى"، فالبعث من متعلقات الربوبية، ومنه قوله تعالى:﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۞ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥١]، وقال تعالى:﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقوله تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقوله تعالى:﴿وَلله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقوله تعالى:﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ [الأعراف: ٧١]، وقوله تعالى:﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ۞ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ۞ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ

جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣]:"أليس هذا خللًا في توحيد الأسماء والصفات؟ الجواب: بلى.

فهذه النصوص وغيرها كثير دالة على الخلل في توحيد الربوبية والمعرفة والإثبات، والمعبر عنه بتوحيد الأسماء والصفات.

إذن قد جاء الخلل عند أهل الجاهلية في جميع أنواع التوحيد، ولهذا كان الخلل عامًّا في جميع مناحي العبادة والحياة،فتأمل. والله أعلم.

الاستنباط الخمسون

من قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۞ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٤، ٩٥]، فيها استعفاف الداعية عما في أيدي الناس واعتماده على الله عز وجل، وكذلك من كان في مكان القدوة من الناس عليه أن يتعفف عما في أيدي الناس، وأن يستغني عنهم. وعليه أن يتذكر أن ما عنده من العلم والهدى هو أعظم من أن يأخذ عليه مقابلًا من حطام الدنيا الفانية، هذا إذا كان عنده ما يكفيه من حطامها؛ أما إن لم يكن فلا بأس أن يأخذ ما يقيم به صلبه لحديث أبي سعيد الخدري كما في «الصحيحين» وقصته مع سيد القوم من الكافرين حيث إنه رقاه وأخذ على ذلك أجرًا. وفي «صحيح البخاري»عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ **«إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله»**،وهذا ما ذكره الله تعالى عن الأنبياء والمرسلين كقوله تعالى:﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ

خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، قال الحسن: أجرًا، وقال قتادة جعلًا ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلًا ولا شيئًا عن دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب ذلك عند الله راجيًا جزيل ثوابه، وكما قال تعالى:﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله﴾ [سبأ:٤٧]، وقوله تعالى:﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقوله تعالى:﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى:﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١]، وقال تعالى: ﴿[illegible]﴾ [هود: ٢٩] والله أعلم.

الاستنباط الحادي والخمسون

من فعل النبي ﷺ كما في «الصحيحين» عن سهل بن سعد الساعدي « أن رسول الله ﷺ ذهب إلى بني عمرو بن عوف، ليصلح بينهم فحانت الصلاة، فجاء المؤذن إلى أبي بكر فقال: أتصلي بالناس فأقيم؟ قال: نعم قال

فصلى أبو بكر فجاء رسول الله ﷺ والناس في الصلاة، فتخلص حتى وقف في الصف فصفق الناس وكان أبو بكر لا يلتفت في الصلاة، فلما أكثر الناس التصفيق التفت فرأى رسول الله ﷺ، فأشار إليه رسول الله ﷺ: أن امكث مكانك، فرفع أبو بكر يديه فحمد الله عز وجل على ما أمره به رسول الله ﷺ من ذلك ،ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف وتقدم النبي ﷺ فصلى، ثم انصرف فقال: **يا أبا بكر ما منعك أن تثبت إذ أمرتك**؟ قال أبو بكر: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**مالي رأيتكم أكثرتم التصفيق؟ من نابه شيء في صلاته فليسبح؛ فإنه إذا سبح التفت إليه، وإنما التصفيق للنساء**».

فإن كثيرًا من الناس يسأل عن دليل جواز أن يكون المسبوق إمامًا لغيره إذا قام ليتم صلاته. وهذا الحديث يصلح دليلًا على ذلك فإن الإمام أولًا في هذه الصلاة هو أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فمضى في الصلاة إمامًا، ثم لما جاء النبي ﷺ تأخر أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وصلى النبي ﷺ بهم وكان مسبوقًا ببعض الصلاة، ومع ذلك مضى فيها فصار الصحابة مؤتمين بالنبي ﷺ الذي كان مسبوقًا .والله أعلم.

الاستنباط الثاني والخمسون

من قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧] فيها أن المؤمن وقف في موعظته عند حد ما يعلم فقط. فذكر التراب ثم النطفة، ثم قفز إلى الحالة السوية وهي حالة الإنسان الكامل أما ما بين ذلك، وما كان في الرحم من العلقة

والمضغة وأسرار الأجنة، ومددها فهذا من معجزات محمد ﷺ التي لم يدركها العالم إلا في هذه القرون المتأخرة، فسبحان من أنزل الكتاب على عبده ليكون للعالمين نذيرًا. والله أعلم.

الاستنباط الثالث والخمسون

من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠] فيها إشارة إلى نوعين وأسلوبين من أساليب أهل الكفر والطغيان لدحض الحق والقضاء على أهله، إما معنويًّا وإما جسديًّا مع المحاولة الجادة لردهم إلى الكفر والغي والضلال، ففي قوله تعالى: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: بأنواع الآفات والبليات؛ فيقال: قد فقدوا عقولهم فهم مجانين أو أنهم يخيل إليهم فهم مسحورون، أو يقال: يريدون الظهور والشهرة فأتوا ببدع من القول لم يسبقهم إليه أحد، وهكذا من أنواع الكبح المعنوي والإسقاطات أمام الملأ من قومهم فهذا كله وغيره في قوله تعالى﴿يرجموكم﴾.

وأما الأسلوب الثاني فهو أسلوب التعذيب والإرهاب والتنكيل حتى يردوهم بالقوة عن دينهم حتى ولو أدى ذلك إلى التصفية الجسدية، أو باستعمال الشبهات وأئمة الضلال ليلبسوا عليهم أمر دينهم، وليس عندهم مانع من أن يستعملوا جميع الأساليب في سبيل تحقيق ذلك من استعانة بالجن والإنس للقضاء على هذه الدعوة وأتباعها، ولكن هيهات هيهات فإن الله أبى إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون والكافرون. وهذا كله إنما يحصل في حال

ضعف الناس وعدم قيامهم بصدق لحمل هذا الدين عندها يتعرض أمثال هؤلاء الصادقين لمثل هذه الأعمال العدوانية من المنافقين والكافرين الذين لا ينشطون إلا عندما يضعف المسلمون عن حمل هذه الأمانة العظيمة أما في حال عز الإسلام فتراهم خامدين متربصين، وما إن يعرض الناس عن دين الله الحق القويم عندها يقع ذلك الرجم، وذلك الإرهاب والاضطهاد لعباد الله الصادقين ابتلاء من الله عز وجل؛ ليظهر الفجر من جديد على أثر صبرهم واحتسابهم.

كما أن الآية دالة على أن أغلى ما يملكه العبد هو دِيْنُهُ وأن آكد ما يتعين عليه العناية به والمحافظة عليه، هو هذا الدين العظيم؛ ولهذا كان النبي ﷺ يسأل ربه صلاح الدين قبل الدنيا، كما في «صحيح الإمام مسلم» من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يقول:**«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»**، وسيأتي على الناس زمان أشبه ما يكون بحالة هؤلاء الفتية أصحاب الكهف؛ كما في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»**.

كما أن في هذه الآية إظهارًا لنور البصيرة والفراسة الصادقة الذي يقذفه الله في قلوب المؤمنين الصادقين والدعاة المخلصين بحيث تكون توقعاتهم غالبًا موافقة للحق والواقع وتحليلاتهم للأوضاع الغامضة لها الحظ الأكبر من الفلاح والصواب، ولهذا قالوا ما قالوا هنا وهذا توقع منهم موافق

للحق ومخالف للصواب، و﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] نسأل الله من فضله العظيم آمين. والله أعلم.

الاستنباط الرابع والخمسون

إن كل كلمة شكر وردت في القرآن الكريم في حق العباد يمكن حملها على معنى التوحيد ذلك؛ لأن حقيقة الشكر هو توحيد الله عز وجل في كل شيء في الأعمال والأقوال والنعم والهبة والعطاء، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] أي موحدين وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] أي: الموحد، وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] أي: إما موحدًا وإما كافرًا، وهكذا وما كان ظاهره غير ذلك فحقيقته كذلك.

وإليك بيان بعض تلك الآيات التي قد يلتبس فيها الأمر:

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] المعنى أي: ليختبرني من أي الناس أكون: من الموحدين، أم من الكافرين؛ لأن من وحد الله حق توحيده فإنما ينفع نفسه، وأما من كفر فإن الله غني عن العالمين، والعبد لا يضر إلا نفسه.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥] المعنى أن أوحدك في ما أنعمت به علي وعلى والدي، فلا أصرف هذه النعم إلى غيرك، ولا أنسبها إلا لك، كما قال تعالى:﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: تجعلون شكركم وتوحيدكم شركًا وكفرًا.

وقوله تعالى:﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] المعنى أي: وَحِّد الله وإن من تمام توحيده أن تبر بوالديك اللذين كانا سببًا في وجودك فَوَحِّد الْمُوجِد، وبر من جعله الله سببًا في ذلك، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] المعنى أي: اعملوا وأنتم حال عملكم من الموحدين الله في ما تعملون فاصرفوا جميع ما تعملون، وما تقولون لله الواحد القهار فإنه قليل من العباد من يوحد الله في جميع أعماله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِالله إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] المعنى أننا ما أطعمناكم إلا ونحن نريد بذلك توحيد الله عز وجل بذلك فلا نرجو ثوابًا على ذلك من أحد من العباد، بل نطمع في ثواب الله عز وجل العظيم الذي أعده لعباده الذين حققوا التوحيد في حياتهم في كل ما يأتون وما يذرون.

وهذا لا يعني نفي الشكر باللسان والجوارح؛ إذ هو داخل في عموم

التوحيد .والله أعلم.

الاستنباط الخامس والخمسون

من قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥]، ففي هذه الآية إشارة إلى أهمية ضوء الشمس والهواء الطلق على حياة العباد وصحتهم.

الاستنباط السادس والخمسون

وهو متعلق ببيان معنى الرفق، وعلاقته بالدعوة إلى الله تعالى في نحو قوله ﷺ: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**» أخرجه مسلم من حديث عائشة ـ رضي الله عنها، وما في «الصحيحين» عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «**يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**».

و أما علاقة ذلك بالدعوة إلى الله عز وجل، فنقول وبالله التوفيق:

إنه قد ثبت عن النبي ﷺ مواقف كثيرة قد استعمل فيها أسلوب اللين في إنكار المنكر، كحديث الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد[١].وكحديث الرجل الذي جاء يستأذن النبي ﷺ في الزنا[٢]، وغيرها من الأحاديث الدالة على ذلك كما أنه قد ثبت عنه ﷺ أحاديث أخرى استعمل فيها النبي ﷺ الشدة

(١) «متفق عليه» من حديث أنس، رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد، والطبراني في «الكبير» من حديث أبي أمامة، وسنده جيد .

في إنكار المنكر؛ بل لربما وصل ذلك إلى درجة الهجر وعدم رد السلام على صاحب المنكر فمن ذلك فعله عليه السلام مع صاحب خاتم الذهب فقد عمد ﷺ بنفسه إلى يد ذلك الصحابي ونزع منه الخاتم وألقاه في الأرض، كما في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، أن رسول الله ﷺ رأى خاتمًا من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه وقال: «**يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده**»، فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به. قال: لا والله لا آخذه أبدًا، وقد طرحه رسول الله ﷺ ومن ذلك هجرانه ﷺ لأصحابه الثلاثة الذين خُلِّفُوا، والقصة مشهورة في غزوة تبوك في «الصحيحين» وغيرهما من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

هذا مع أن النبي ﷺ هو الذي قال الله فيه:﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعليه نخلص إلى أن هناك فرقًا كبيرًا بين كلمة اللين والرفق والشدة في المعنى، فليس الرفق يعني: اللين أو الشدة؛ بل الرفق يعني: أن تفعل بصاحب المنكر ما هو الأرفق به هذا إن كان المنكر يتعلق به وحده، وأما إن كان المنكر يتعلق به وبالأمة فيجب أن يُراعي الداعية مصلحة الأمة أيضًا، وأن هذا هو عين الرفق في الدعوة إلى الله عز وجل، أما أن نظن أن اللين هو الرفق المراد في الأحاديث دائمًا، فهذا غلط بين واضح بل إن اللين والشدة أسلوبان من أساليب الدعوة إلى الله؛ يستعمل هذا تارة وهذا أخرى بحسب ما يقتضيه الحال، وهذا هو معنى الرفق الوارد في الأحاديث النبوية؛ ألا ترى أن الأب يضرب ابنه بشدة لمنكر رآه عليه، ومع ذلك فلا يشك أحد أن أباه أراد بذلك الرفق به والنصح له. وأمثلة ذلك كثيرة في الواقع حيث يعمد المربي إلى الشدة

أحيانًا، وإلى اللين أحيانًا، وهو في ذلك كله يريد ويقصد الرفق بمن تحت يده وبصاحبه فقد تكون الشدة هي الرفق، كما قد يكون اللين هو الرفق كما أنه قد يكون أسلوبًا آخر هو الرفق المهم هو أن تفعل ما ترى أنه هو الأنسب والأرفق بحال المنكر الذي وقع مع مراعاة الشخص والأمة في ذلك، وهذا الرفق علامة على فقه الداعية إلى الله ورحمته بالأمة؛ لأنه يضع الأمور في نصابها، ولأن بعض المواقف تحتاج إلى الاجتهاد في استعمال الأسلوب الأنسب والأرفق بأصحاب المنكرات؛ لأن المراد الأكبر من الإنكار تغيير المنكر والإعذار إلى الله عز وجل حتى تحصل النجاة بإذن الله عز وجل . والله أعلم .

الاستنباط السابع والخمسون

من قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩]، فلقد ورد ذم اتباع الهوى هنا في هذه الآية مقيدًا بما إذا كان اتباع الهوى بغير علم، وأن العبد يكون بذلك من الظالمين الضالين. أما إذا كان الهوى موافقًا للعلم وما جاء من الهدى والحق فإنه مما لا يُـذم، وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى كما في الحديث الذي في سنده ضعف«**لا يؤمـن أحدكم حتى يـكون هواه تبعًا لما جئت به**». أخرجه صاحب كتاب «الحجة» الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي الفقيه وكتابه هذا هو كتاب «الحجة على تاركي سلوك طريق المحجة» وقد خرَّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين، كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن

العاص، رضي الله عنهما.

وهذا يؤكد أن الراجح من قولي العلماء أن الهوى منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم، وإن كان الغالب في نصوص الكتاب والسنة ذم الهوى وذلك لأن الأغلب على العباد الأخذ بالهوى المذموم، ومن أدلة الهوى المحمود ما جاء في «الصحيحين» عن عائشة قالت: **كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول وتهب المرأة نفسها! فلما أنزل الله عز وجل** ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ [الأحزاب: ٥١] قالت: **قلت: والله ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك**. فهذا الخبر دالٌ على أن للنبي ﷺ هوى ولكنه أكمل وأفضل وأحسن أنواع الهوى. والله أعلم.

الاستنباط الثامن والخمسون

من قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله﴾ [لقمان: ٢٧]، فإن في ذلك دلالة واضحة على أن الله عز وجل يتكلم بكلام قائم به هو من صفات ذاته سبحانه، فهو كلامه حقيقة لا مجازًا ولا عبارة ولا حكاية ولا كلامًا نفسيًّا، بل هو كلامه حقيقة يتكلم به سبحانه متى شاء وكيف شاء جل الله في علاه. ذلك لأن الصفة الذاتية القائمة بالذات لا تفنى ولا تزول ولا تنتهي إلا بزوال تلك الذات، ولأن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فالكلام القائم به لا يزول ولا يفنى ولا ينتهي، ولو كانت

جميع ما في الأرض من الأشجار تحولت إلى أقلام وصارت البحار حبرًا تكتب بها تلك الأقلام؛ لنفدت تلك البحار ولجفت تلك الأقلام، ولو جاءت بحار وبحار مِدَادًا لتلك الأقلام لما انتهت ولما نفدت كلمات الله، ذلك لأن الأقلام والبحار مخلوقات تفنى وتزول. أما كلمات الله فصفة قائمة بالله عز وجل الذي لا يزول ولا يحول؛ قال تعالى:﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال سبحانه عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فأي مقارنة بين الباقي الدائم وبين الفاني الزائل؟! ولهذا:﴿قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩]، و﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله﴾ [لقمان: ٢٧]؛ لأن كلماته باقية لا تفنى ولا تبيد والمخلوقات ليست كذلك.والله أعلم.

الاستنباط التاسع والخمسون

من قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ القُرْآنَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، فإن فيها كبحًا لجماح النفس الأمارة بالسوء والتي تدعو الإنسان إلى العُجْبِ والاغترار والفرح بما عنده من العلم والإمكانات، فتأتي هذه الآيات لتردع هذه النفوس لتردها إلى حظيرة الرشد والهدى، فالحق سبحانه بيَّن في هذه الآيات أن الإنسان قد جاء عليه حين من الدهر لم يكن يعلم من القراءة شيئًا، فكان جاهلًا صفر اليدين من كل علم، خالي الوفاض والذهن من كل قراءة، كما أنه قد جاء عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، فخلقه الله وأوجده من العدم وجعله

سميعًا بصيرًا، فهو محتاج إلى خالقه من كل وجه والله غني عنه من كل وجه، كما أنه سبحانه هو الذي عَلَّم الإنسان كيف ينطق ويفصح عن مراده ويبين مبتغاه، فما دامت القراءة والعلم من الله والإيجاد والخلق من الله والبيان وحسن المنطق وحلاوة الكلام وصياغة البديع من البيان والجميل من العبارات. كل هذا وغيره هو من عند الله أعطاه للإنسان، والله غني عنه فكيف يسوغ للإنسان أن يستعمل تلك النعم فيما يبعده عن الله وكيف يسوغ للإنسان أن يتكبر على الله و أن يظن بنفسه الظنون الكاذبة من الاغترار والافتخار بحسن الخلقة وبهي الطلعة، أو بحسن القراءة وكثرة العلم، أو بحسن البيان وأسلوب المنطق والخطاب، فالخلق والعلم والبيان من الله وحده لا شريك له، فما أجهل الإنسان وشدة جحوده يوم أن ينسب لنفسه ما هو من فضل ونعمة غيره، بل كان الواجب عليه أن يدفعه ذلك إلى معرفة شدة حاجته وفقره للذي وهبه ذلك كله مِنَّة منه وفضلًا، ألا وهو الله الواحد القهار فيا أيتها النفس! إياك إياك والعجب والذهاب مبعدة بما عندك من خير، فإنه والله كله من الله وإلى الله المصير. فلم يبق إلا نسبة النعم إلى موليها، والرجوع بالفضل لصاحبه والاشتغال بمراضيه والتحبب إليه والوقوف بين يديه على الوجه الذي يحبه ويرضيه حتى نوحده بتلك النعم وعظيم المنن، فتقر النعم وتزداد ـ التي بكفرها وجحودها تفر ـ وتعرف النفس حقيقتها فتقصر عن غيها وعجبها وكبرها وتعرف أنه هو الرحمن الذي لا إله إلا الله: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

كما أن الله عز وجل قدم هنا ذكر نعمة تعلم القرآن على غيرها وذلك ـ والله أعلم ـ لأن نعمة الخلق والبيان نعمتان يستوي فيهما جميع العباد البار والفاجر والمؤمن والكافر والذكر والأنثى والصغير والكبير، فالكل مخلوق لله عز وجل والكل يستطيع أن يُبِين ويفصح عما أراد بشكل، أو بآخر نعم لا شك أن الناس يتفاوتون في ذلك، وأما نعمة تعلم القرآن فليس كل الناس تحصل

له، بل هي نعمة خاصة ومنة ظاهرة وسمة بارزة لأهل العلم وأولي النهى، فقراءة القرآن وتدبره وتعلمه هي الآلة التي يتوصل بها إلى التوسع في العلوم والمعارف وسعة الأفق والمدارك.

والعلم من أشرف المطالب فينبغي لمن مَنَّ الله عليه بهذه النعمة أن يعرف لها قدرها ويصرفها إلى مُولِيها الرحيم الرحمن، وأن يتذكر دائمًا أنها نعمة وهبة من الله عز وجل خصه بها فلا تكون سبيلًا للكبر على الناس و غمطهم وبطر الحق الذي معهم والتعالى عليهم. قال تعالى:﴿وَالله أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] والله أعلم .

الاستنباط الستون

من قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ الله يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقوله تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، فبين الله عز وجل في هذه الآيات أن السير في الأرض، والنظر في ملكوت السموات والتدبر في الآفاق يجب أن يكون بسلطان ظاهر من أمر الله عز وجل، فلابد أن يكون النظر بالحق والعلم الصحيح والعقل السليم، حتى تحصل الهداية وينتفع الباحث عن الحق، وينتفع الناس من ذلك العلم وتحصل الخيرات وتنزل البركات؛ أما أن يكون النظر مجردًا وناتجًا عن الأهواء وهمزات الشياطين، فهذا لا ينفع صاحبه بل يزيده

حيرة وبعدًا عن الهداية والحق وهذا ما حصل لجاهليات الأرض اليوم فإنهم لما نظروا في آيات الله في السموات والأرض وفي الآفاق نظروا فيها بدون سلطان من الله عز وجل، فنظروا في الآيات بعين البصر المجردة، لا بعين البصيرة الحقة، فكانت النظرة مقطوعة الصلة بالخلاق العليم الواحد القهار، فحصل لهم ما هم فيه من الضلال العظيم والإعراض عن الله رب العالمين، فأورثهم ذلك إلحادًا وإنكارًا للخالق العظيم، لأنهم اتبعوا ما تتلوه الشياطين على مسامعهم من الباطل، وصدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه واستجابوا له، فكانوا من أهل لمته «إيعاد بالشر وتكذيب بالحق»، وعليه فهذه الآيات وأمثالها إنما ينتفع بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أما من أغفل الله قلبه فلا حيلة معه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤]. ففي قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ﴾ دليل على أن المراد الأعظم من هذه الآيات وبثها في ملكوت السماوات والأرض وبيانها للعباد هو حصول الاهتداء إلى الحق، فإذا استعمل العبد هذه الآيات في غير المقصود التي لأجلها خلقت ضل وغوى، وهذا هو عين ما جرى لأمم الكفر اليوم، فجائت الحضارة خاوية من الهدى صفر اليدين من الحق.

ولذلك لما جُرِّدَ العلم عن أهم الأشياء فيه، وهو استعماله كوسيلة للاهتداء ومعرفة الحق ونسبة النعم إلى صاحبها سبحانه وتعالى عاش العالم اليوم ثورة علمية كما يزعمون خاوية عن الخير، فأصبح الناس في ضنك من العيش وأنواع شتى من الأرق والقلق النفسي بالرغم من هذا التقدم الحضاري الماثل أمامنا اليوم، إلا أنه

علم جاهلي وحضارة متهالكة كل يوم تقترب من نهايتها وانقضائها وسقوطها ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فصار هذا العلم وبالًا على العالم اليوم ولم يسعد الإنسان، بل جر عليه الويلات والنكال. ابتداء من مهد هذه الحضارة المأفونة المزعومة فما أكثر الانتحار في تلك البلاد الكافرة الفاجرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه:١٢٤ـ١٢٦] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.والله أعلم.

الاستنباط الحادي والستون

من قوله ﷺ: «**بعثت بين يدي الساعة بالسيف، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**». أخرجه أحمد، وأبو داود، واحتج به الإمام أحمد وصححه أبو القاسم الطبري وجوَّد إسناده شيخُ الإسلام ابن تيمية.

وسبب هذا الاستنباط أنني سمعت بعض الناس يردون قضية التشبه إلى ضابط غريب ألا وهو هل غالب المسلمين يفعله أم لا ؟ أي: التشبه، فإن كان الغالب يفعل ما يفعله اليهود والنصارى، فإننا لا نستطيع أن نقول إن هذا من التشبه؛ لأنه أصبح سمة بارزة للمجتمع المسلم، ولا يمكن أن نقول إن غالب المسلمين قد تشبهوا باليهود والنصارى؛ خاصة وأنه لم يصبح شعارًا خاصًّا بالكافرين، بل هو أيضًا شعار للعامة من المسلمين اليوم، ولقد كان محور

النقاش حول قضية اللباس، وهل الألبسة كالبنطال والقميص والكرفتة والجينز والبرنيطة والذي يرتديه عامة المسلمين اليوم إلا من رحم الله هل يُعد من التشبه باليهود والنصارى أم لا ؟ فرد البعض بهذه الشبهة المذكورة آنفًا ومن هنا كان منشأ هذا الاستنباط فأقول وبالله التوفيق :

إن الرد على هذه الشبهة سيكون عن طريق ذكر بعض الآيات والأحاديث المتعلقة بعموم هذه القضية، ثم الربط بينها بما يوافق الحق الذي جاءت به حيث إن كلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ يصدق بعضه بعضًا فيتفقان ولا يختلفان تنزيل من حكيم حميد.

قال تعالى:﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله تعالى:﴿وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٠]، وقوله تعالى:﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله ﷺ: «**ومن تشبه بقوم فهو منهم**»، وقوله ﷺ كما في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه.** فقالوا : اليهود والنصارى فقال ﷺ : **فمن؟**» وفي رواية: «**فمن الناس إلا أولئك**»، ثم قوله ﷺ كما في «الصحيحين» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**خالفوا المشركين؛ أحفوا الشوارب وأوفوا اللحى**» ثم قوله

كما عند أبي داود عن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلًا ببوانة فأتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلًا ببوانة، فقال النبي ﷺ :«**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**» قالوا: لا. قال: «**هل كان فيها عيد من أعيادهم؟** قالوا: لا. قال: رسول الله ﷺ:« **أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم**»، وإسناده جيد.

فإن هذه الآيات والأحاديث قد جاءت مفيدة لعدة أمور مهمة متعلقة بهذه القضية الحساسة الخطيرة وهي :

الأمر الأول :-

هو أن غالب الناس دائمًا على الضلال، وأنه علينا أن لا نغتر بالكثرة، بل علينا أن نتخذ من كثرة الناس وانكبابهم على جانب معين مما لم ينص عليه الشارع الحكيم أو يحث عليه علامة ومؤشرًا على وجود الضلال بصورة أو بأخرى، ولهذا قال تعالى: ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله﴾ والمعنى أنهم انحرفوا عن جادة الصواب، فالأكثر إذن منحرف ضال عن سواء السبيل.

الأمر الثاني :-

هو أن هذه الأمة ستتبع حتمًا اليهود والنصارى، وأن هذه سنة إلهية جارية لا تحابي أحدًا، وأن هذا الأمر واقع لا محالة؛ لأن هذا من قدر الله الكوني الذي قدره وهو العزيز الحكيم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

الأمر الثالث :-

وهو أن الشارع الكريم الحكيم قد أمرنا أمرًا واضحًا ومباشرًا بمخالفة اليهود والنصارى والمجوس والأعاجم، وبين شدة تحريم مشابهتهم؛ بل والتعريض بأنه قد يكون العبد منهم وهو لا يشعر، بل وبين أن مخالفة اليهود

والنصارى والأعاجم أمر مراد للشارع محبب إليه في الجملة وبيان ذلك مبسوط في كتب أهل العلم، وخير من طرق هذا الموضوع بما لا مزيد عليه هو شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله في كتابه الموسوم بـ «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم»، فليراجع للأهمية .

الأمر الرابع :-

وهو تحريم الركون إلى الذين ظلموا أنفسهم، بل والبعد عنهم ومفارقتهم ومجانبتهم على كل الأحوال، وأن هذا مما يتمم حياة القلب الذي لا يحيا إلا بالقرب من الله ومرضاته والأنس به سبحانه وتعالى.

الأمر الخامس:-

أن قضية التشبه غير معوزة للنية فمجرد وجود الفعل يعد ذلك تشبهًا فمجرد الموافقة ممنوعة منهي عنها، نعم قد يعذر العبد بجهله، فلا يلحقه بذلك الإثم ولكنه يبقى وصف التشبه لاحقًا به، فإن فعل بعد العلم أثم وهذا الإثم بحسب درجة التشبه، فإن كان في الديانة والعقائد فهذا كفر معاذ الله من كفران؛ وأما إن كانت دون الشرك أو الكفر فهو من كبائر الذنوب. وهذا ما أشار إليه حديث ثابت بن الضحاك، رضي الله عنه.

الأمر السادس :-

أن في التشبه بأعداء الله نوعًا من الموالاة، كما أن ذلك التشبه هو مما يسعد الأعداء، ونحن مأمورون بإغاظتهم وإدخال المكروه عليهم.

فإذا ربطنا بين هذه الأمور كلها خرجنا بالنتيجة التالية؛ ألا وهي أن الناس معظمهم على الضلال وأنهم سيتبعون اليهود والنصارى، وأننا مطلوب منا شرعًا مخالفة اليهود والنصاري وإغاظتهم بالجملة ـ فكيف بأمر هو من

شعارهم، وهو من أظهر الأمور التي تتجلى فيها قضية التشبه بهم ألا وهي قضية اللباس ـ وأنه علينا أن لا نركن إلى الذين ظلموا أنفسهم باتباعهم للظالمين، ولو جاء ذلك من غالب الناس وأنه من تشبه باليهود والنصارى وأمثالهم كان متشبهًا بهم؛ كثر المتشبهون أم قلوا، قصدوا ذلك أم لم يقصدوا ذلك؛ لأن قضية التشبه غير معوزة للنية فمجرد فعل الأمر الذي يفعله الكفار هو من التشبه بهم، وإن لم يقصد الإنسان ذلك لأن الشارع لم يعلق قضية التشبه بالكفار على النية، بل كان النبي ﷺ يُسأل عن لباس الكفار فيأمر بمخالفتهم بدون استفصال أو استفهام عن نواياهم كما جاء ذلك في «مسند الإمام أحمد» من حديث أبي أمامة بسند صحيح. وترك الاستفصال في مقام الاحتمال ينزل منزلة العموم من المقال على ما هو مقرر في علم الأصول، وهذا ما جرى مع من نذر أن ينحر إبلًا ببوانة، فإن النبي ﷺ لم يقل له ما نيتك؟ ولا ماذا أردت بذلك؟ وكما في «صحيح مسلم» عن جابر قال: **اشتكى رسول الله ﷺ** فصلينا وراءه وهو قاعد وأبو بكر يسمع الناس تكبيره فالتفت إلينا فرآنا قيامًا فأشار إلينا فقعدنا فصلينا بصلاته قعودًا فلما سلم قال: **«إن كدتم آنفًا لتفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم إن صلى قائمًا فصلوا قيامًا وإن صلى قاعدًا فصلوا قعودًا»**.

كل هذه الحوادث وغيرها لم يستفصل فيها النبي ﷺ عن نواياهم؛ بل بادر إلى نهيهم عن التشبه بهم، وأمرهم بالمخالفة العامة المطلقة لهم.

إذن فليس كون غالب المسلمين قاموا بارتداء زي الكافرين يجعل من ذلك اللباس حلالًا للمسلمين ويسوغ لهم ارتداءه، وإن المتدبر لهذه الشبهة يرى أن الأمر خطير جدًّا حيث إن المعنى أنه كلما فعل الغالب من المسلمين أمرًا هو من خصائص الكافرين، وشعارهم صار هذا الأمر حلالًا في حقنا ونكون بهذه الأغلبية قد

أخرجنا الأمر من دائرة التشبه، وعليه وبهذا الاعتبار فإنه لن يكون هناك أمر يحصل به التشبه وبالتالي تنتفي قضية التشبه مطلقًا؛ لأن غالب الناس كما تقدم على الضلال وغالب هذه الأمة ستتبع اليهود والنصارى، وهذا كلام باطل وخطير فعلينا أن نتقي الله وأن نقف عند حدود الله عز وجل، وأن لا نستجيب لكل ناعق وخاصة من المفتونين بالحضارة الغربية المزعومة[1]، وهناك فائدة يجدر أن نذكرها هنا لنعلم مدى أهمية هذا التشبه في اللباس عند الكافرين ـ والذي يستهين به كثير من المسلمين اليوم والعياذ بالله من ذلك ـ وكيف أنهم يعدونه من الأمور المهمة، وأن هذا الأمر يعني عندهم الشيء الكثير؛ فإليك هذه الفائدة لعلها أن تنفع بإذن الله عز وجل والحق ما شهدت به الأعداء وذلك أن مؤلفي الكفار من المستشرقين لما تكلموا عن الدولة العثمانية وسقوطها جعلوا تاريخ دخول البنطال من أهم الأحداث التي ينبغي أن تذكر ولا تغفل، وذكروا ذلك في أواخر عهد الدولة العثمانية إبان زمن سقوطها، فذكروا العام الذي تم فيه لبس العساكر المسلمين للبنطلون؛ بل وذكروا في زمان مَـنْ من الحكام كان ذلك الفتح لهم ووصفوا ذلك الحاكم بأنه كان محبًّا للتغيير شغوفًا بما عند الأعداء من التجديدات، فعدوا ذلك فتحًا وتاريخًا مهمًّا وسببًا رئيسيًّا لسقوط الدولة العثمانية لماذا ؟ لأنها بدأت في الاستجابة لتيار التغريب والركون إلى الكفار. والمعنى أن الحاجز قد انكسر والباب قد انفتح أمام تيار العلمنة والقضاء على الإسلام ـ ولكن هيهات هيهات﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]ـ المهم أن هؤلاء المستشرقين قد فرحوا بذلك فرحًا عظيمًا، وعدوا ذلك من الانتصار الذي يحسب لهم وأنها بداية النهاية

(١) تنبيه: هناك بعض الفضلاء من أهل العلم أفتى بجواز لبس البنطال بنفس هذه الدعوى، ونحن معاذ الله أن نقصد أهل العلم بكلامنا، أو أن نعَرِّض بهم بالضلال، وإنما ندين الله تعالى بحبهم وأنهم اجتهدوا لإصابة الحق، فهم بين الأجر والأجرين، ولكن الحق أحب إلينا منهم.

لتلك الدولة، والأمر كما قال الله عز وجل في محكم التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۞وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِالله فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١]

فجعل الله عز وجل مجرد طاعتهم بابًا وطريقًا يوصل إلى الكفر والضلال، ولذلك كان اليهود يقولون عن المسلمين عندما كان المسلمون في بادئ الأمر يصلون إلى بيت المقدس كانوا يقولون: وافقونا في قبلتنا فيوشك أن يوافقونا في ديننا، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم: (الوجه الثامن من الاعتبار أن المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة). اهـ. ولذلك جاء النهي الصريح عن الركون إلى الظالمين مطلقًا لا بالجلوس معهم ولا بالتشبه بهم في أي شأن من شئونهم كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ولذلك كان النبي ﷺ شديد الحرص على مخالفة أولئك الكافرين حتى قال اليهود لعنهم الله: ما أراد هذا الرجل إلا مخالفتنا يريدون النبي ﷺ ذلك لأنه ﷺ عمد إلى كل شيء يفعلونه، فخالفهم فيه.

كما في «صحيح مسلم» عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت فسأل أصحابُ النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فقال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد

ابن بشر فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول: كذا وكذا أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما.

وأمر المسلمين بذلك حتى أنه ﷺ كان يقلب بصره في السماء ينتظر الساعة التي يؤمر فيها بمخالفة اليهود والنصارى في قبلتهم التي يصلون إليها، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:١٤٤].

ذلك لأن مشابهتهم ولو في هديهم الظاهر أمر يميع عقيدة الولاء والبراء في قلوب المسلمين؛ بل قد يقضي عليها بالكلية كما حصل ذلك في بعض بلاد المسلمين اليوم كما أن التشبه بهم يطمئن القوم على ما هم فيه من الباطل، كما أنه مما يدخل السرور على قلوبهم وُيفرحهم في حين أننا مأمورون بإدخال الحزن والغيظ عليهم، فهم أعداء الله وأعداء الملة و المرسلين أجمعين وأصحابهم المؤمنين.

والخلاصة: أنه إذا ارتدى الكفار زيًّا ما؛ وأصبح ذلك الزي شعارًا لهم وسمة ظاهرة في مجتمعاتهم كان كل من لبس لباسهم متشبًا بهم رضي أم أبى علم أم لم يعلم نوى التشبه أم لم ينوِ، وإن كان ذلك في غابر الزمان فمتى ما ثبت أنه كان شعارًا في يوم من الأيام للكفار وجب على المؤمنين مخالفتهم فيه

وعدم التشبه بهم[١].

ولتمام الفائدة فإن بعض المسلمين فر من البنطال فلبس لباس الأعاجم من أفغانستان وباكستان وأندونسيا وغيرها، وهذا باطل آخر فإن الإسلام نهى عن التشبه بالكفار والأعاجم وإن كانوا من المسلمين وقد ذكر أدلة ذلك العلماء، وهو مبسوط بما فيه الكفاية في كتبهم لاسيما كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم».

ومن أراد معرفة العز الذي كان عليه أهل الإسلام في هذه الباب،

---

(١) تنبيه:بعض المتأخرين زعم أن النبي ﷺ لبس بعض ألبسة فارس والروم، وهذا باطل محال، ولكن القائل بهذا عفا الله عنه قد ذهل عن مسألة مهمة، وهي أن بعض ألبسة العرب كان ربما نسج وصنع في بلاد الكفار والعجم أو استعمله العجم على وجه مذموم، فظن أن في نسبة اللباس إلى البلد دليلًا على أنه من لباس العجم وشعارهم ومن خصائصهم، وهذا وهم وباطل؛ فإنما نسبت إلى البلد من باب نسبة الشيء إلى المكان الذي صنع فيه أو نسج أو استعمل فيه، وإلا فالأصل أنه من لباس العرب كالجُبَّة والبرنس والأنبجانية والميثرة وغير ذلك مما ورد.ومعاذ الله أن ينهى النبي ﷺ عن التشبه بالكفار والأعاجم، ويأمر بمخالفتهم، ثم يعمد هو عليه الصلاة والسلام إلى فعل ذلك.معاذ الله من ذلك، وحاشاه ﷺ ومن المهم التنبه إلى أن قضية التشبه متعلقة بما كان من شعار وخصائص المشركين والكافرين، أما إذا كان اللباس مشتركًا في أصله كالجبة والعباءة والملابس الداخلية كالسراويل ونحوها فهذه لا تَشَبُّهَ فيها؛ لأنها مشتركة لكل الناس ولا مزية فيها لقوم عن الآخرين، فالجميع يلبسها ولا يُعَدُّ أحدهم متشبهًا بالآخر؛ ولهذا فرق النبي ﷺ بينها وبين ما كان شعارًا للقوم فنهى عن التشبه بهم وفي نفس الوقت ثبت عنه ﷺأنه لبس الجبة الشامية كما في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، والشام يومئذ تحت حكم الروم.

وإنما يكون التشبه فيما اتخذه القوم شعارًا لهم يُعْرَفُونَ به عند رؤيتهم لأول وهلة، فهذا النوع هوالذي لا يجوز لبسه ولو بعد حين ولو تركه الكفار حينًا من الدهر ولو فعله الأكثر من المسلمين. وهذا مذهب جماهير أهل العلم كما قرره ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم. والله أعلم.

فليقرأ الشروط العمرية[١]؛ ليعلم ما أجمع عليه المسلمون من وجوب ترك التشبه بأعداء الله والنهي عن التشبه بالأعاجم ورطانتهم، وأنه لابد من حصول التميز في الظاهر، كما أن التميز حاصل في الباطن باختلاف العقائد وحقيقة العبادة.

وأخيرًا قال الله تعالى:﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، والعياذ بالله من ذلك ونسأل الله العافية والسلامة من التشبه بالذين يسبون الله تعالى صباحًا ومساءً، ويؤذون الله تعالى وعباده الصالحين ويكيدون لهذا الدين ويتمنون أن يكون الناس كلهم على الكفر والضلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . والله أعلم .

الاستنباط الثاني والستون

من قول أم سلمة قالت: «لما نزلت: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من الأكسية». أخرجه أبوداود بسند لا بأس به وله شواهد فمنها «ما جاء عن عائشة، وفيه ضعف عن صفية بنت شيبة قالت: بينا نحن عند عائشة قالت فذكرن نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : إن لنساء قريش لفضلًا، وإني

(١) هذه الشروط تلقتها الأمة بالقبول، وقد جمع ابن القيم طرقها في كتابه «أحكام أهل الذمة» وتكلم عليها بما لا مزيد عليه، فليراجع؛ فإنه نفيس.

والله مارأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقًا لكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١] انقلب رجالهن إليهن يَتْلُونَ عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رءوسهن الغربان» أخرجه ابن أبي حاتم.

والاستنباط متعلق بقولها كالغربان، فإنه قد جرت عادة أهل الجاهلية ومن نحا نحوهم أن يتشاءموا من الغراب، ولونه فجاءت هذه المقولة لتؤكد بطلان ذلك وتغييره حيث إن أم سلمة وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ شبهتا لون حجاب نساء الأنصار اللاتي التزمن بالحجاب الذي يسر الناظرين، ويشرح قلوب المؤمنين بأنه كلون الغربان فلا تشاؤم بل هو الاستبشار بذلك والفرح. ففيه إبطال شعائر الجاهلية، وعدم الاعتداد بما كانوا عليه.

وهكذا جاء الإسلام ليطارد الوثنية بكل مفاهيمها الباطلة وتصوراتها الفاسدة، ليقلب كيان الجاهلية وظلامها وضلالها ليعيش الناس في نور الإسلام وعدله وهداه واستقامته، فقويت العقول والقلوب وتحررت من رق الشبهات والشهوات والخوف من المخلوقات تشاؤمًا منها وتعظيمًا لها في النفوس الضعيفة.

كما أن هذا الحديث دال على أن لون حجاب الصحابيات في ذلك الزمان كان السواد، وإن كان هذا ليس بقيد في لون الحجاب، ولكن لابد أن لا يكون الحجاب فاتنًا بحال من الأحوال فلا زينة فيه ولا فتنة وأن يكون صفيقًا واسعًا فضفاضًا، على أن الأكمل هو السواد على ما كان عليه نساء الأنصار. كما أن في هذا الأثر إشارة إلى تغطية النساء لوجوههن، فمن يراهم لا يرى إلا السواد. والله أعلم.

الاستنباط الثالث والستون

من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ ۞ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٧، ٨] .

فمن هذه الآية نتعلم أن طريق الجنة هو في خشية الله عز وجل، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] .

وبالنظر في الآيتين الكريمتين على وجه الإجمال نتعلم أن الطريق الأمثل لحصول الخشية من الله تعالى؛ هو طلب العلم الشرعي، وبالتالي فإن الطريق الأمثل والأعدل لدخول الجنة هو العلم؛ إذ إن العلم هو الطريق إلى خشية الله تعالى، فبالعلم يكون العبد بعد توفيق الله تعالى من عباد الله المتقين، ومن حزبه المفلحين الذين يعرفون حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ فَعَلِم وعمل وعَلَّم، فكان من المفلحين فحصلت له الخشية فكان من أهل جنات النعيم أسأل الله العظيم الكريم أن يجعلنا منهم آمين.

ولهذا قال سفيان: (العلم الخشية) والخشية من مقامات الخوف الناتج من جراء العلم بالله رب العالمين ولهذا وردت في الكتاب العزيز في مقامات المعرفة بالله تعالى. والله أعلم.

الاستنباط الرابع والستون

في بيان معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، فقوله تعالى:﴿حَلاَّفٍ﴾ هي من صيغ المبالغة أي كثير الحلف.

فإن الذي يكثر الحلف بالله عز وجل ويجعل الله عرضة لأيمانه جاعلًا الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه، ولا يجعل لاسم الله وزنًا فقد استهان باسم الله عز وجل، ولم يعظمه حق التعظيم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، ولما كان هذا طبعًا له جعله الله تعالى مهينًا أي مستحقًّا للذل والمهانة إذ كان هو الأحق بذلك، والجزاء من جنس العمل، فمن استهان بالحلف بالله العظيم كان هو المهين الذليل الخاسر عياذًا بالله من ذلك. والله أعلم.

الاستنباط الخامس والستون

من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [تبارك: ٣٠]، فإن هذا له علاقة قوية بالإيمان حيث إن السورة تقرر حقيقة الإيمان بالله العظيم، والاستدلال بآياته ومخلوقاته على عظمته ووحدانيته، وعليه ففي هذه الآية إشارة إلى أن الذي لا ينتفع بهذه الآيات والعبر والعظات، فإن الله عز وجل سيحول بينه وبين الإيمان الذي هو المادة التي تحيا بها القلوب حتى إذا أراده لم يجده ولم يدركه كما أن العبد إذا أذهب الله

تعالى عنه الماء الذي هو المادة التي به تحيا الأرض، فطلبه فلم يدركه لبعده عنه وذلك لتفريطه فيه، والجزاء من جنس العمل، فمن عرف الهدى والحق ولم يتبعه متعمدًا في زمن الإمكان غور الله تعالى عليه الإيمان حتى إذا أراده لم يجده شيئًا، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى:

﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢]، وقوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧] .

نسأل الله العافية والسلامة والثبات على الإيمان حتى الممات آمين. ففي ختم السورة بهذه الآية تذكير بهذا المعنى الدقيق فافهم. والله أعلم.

الاستنباط السادس والستون

متعلق بالأحاديث الدالة على أن النبي ﷺ كان يتشبه ببعض أفعال اليهود في أول الأمر، فقد كان ذلك لأجل ترغيبهم وتأليف قلوبهم ثم لما تبين له عنادهم ترك ذلك، وأمر بمخالفتهم لأنه تبين له أنهم قوم بهت معاندون مستكبرون وعليه فلا يجوز لأحد كائنًا من كان وبأي حال من الأحوال أن يكرر هذه التجربة لغرض تأليف قلوبهم؛ لأنه لن يكون بحال من الأحوال أحرص من النبي ﷺ على هدايتهم وهداية الخلق، ولن يكون أحد بحال من الأحوال بأحكم منه عليه الصلاة والسلام في أسلوب

الدعوة إلى الله تعالى، ولا أحد أعلم ولا أرحم منه عليه السلام، فعلم من ذلك أن من نعمة الله تعالى علينا أن أرانا عناد هؤلاء القوم مع أكمل الخلق خلقًا وعلمًا وحكمة ورحمة وأحرصهم على هداية الناس، ومن ذلك نعلم أن هذا التدبير الإلهي جاء ليقطع كل سبيل إلى التشبه بهم، ولو حتى على سبيل الدعوة إلى الله تعالى وهذا مما يفعله الرسول ليكون ذلك تشريعًا عامًّا لأمته؛ ولذلك بعد أن تبين عنادهم واستكبارهم أخذ الرسول الكريم يخالفهم في كل شيء، ويأمر أصحابه والأمة من بعدهم بذلك، وأبان للأمة أن التشبه بهم حاصل بمجرد المشابهة والمشاكلة، وإن لم ينو ذلك العبد، وجعل النبي ﷺ المتشبه بهم منهم فيكون متشبهًا بإخوان القردة والخنازير. قال تعالى:﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الانعام: ٥٥]، فلله الحمد والمنة على استبانة سبيل المجرمين. والله أعلم.

الاستنباط السابع والستون

من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ففي هذه الآية رد على المعتزلة والخوارج الذين يكفرون المسلمين بالذنوب التي لم تبلغ حد الكفر بالله العظيم حيث إن الله تعالى مع وقوعهم في المعصية بالشرب من النهر، وعصيانهم للأمر؛ إلا أن الله تعالى سماهم مؤمنين مما يدل على أن الإيمان إذا ثبت حكمه للعبد فلا يجوز إزالته بمجرد الوقوع في المعصية ما لم تبلغ حد الكفر بالله العظيم.والله تعالى أعلم.

الاستنباط الثامن والستون

من قوله تعالى ﴿أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]، فلقد ذكر غير واحد من أهل التفسير أن وجه التشبيه بين عاد وثمود في قوله تعالى ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ هو من جهة كونهم عربًا، وأنهم بقرب أرض ثمود، ولكن المتأمل يجد أن الله تبارك وتعالى قد أهلك قوم صالح ـ عليه السلام ـ بالصيحة، وكذلك فعل سبحانه وتعالى بقوم شعيب ـ عليه السلام ـ فلا يبعد أن يكون وجه الشبه الأقوى هو من جهة التشابه في طريقة الإهلاك وطبيعة العذاب الذي هو الصيحة ولذلك قرن الله تبارك وتعالى بينهما في هذه الآية. والله أعلم.

الاستنباط التاسع والستون

من قوله تعالى ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] فيه أن الداعية إلى الله إذا كان في مقام الدعوة أو الفتوى أو التبليغ فإنه يجب عليه أن لا يكون من الجاهلين الذين يستهزءون ويكثرون الضحك، وضرب الأمثلة المضحكة حتى يتحول المجلس إلى مجلس فكاهة كما يفعل بعض المنتسبين إلى الدعوة إلى الله، وحجتهم في ذلك تأليف القلوب وهذا غلط فاحش ينبغي أن تنزه عنه الدعوة والداعية، فإن مقام التبليغ عظيم، والداعية يتكلم بأمر عظيم وفي شأن كبير؛ ألا وهو الدين وقد أمرنا أن نأخذه بقوة، والنبي ﷺ كان إذا وعظ علا صوته واحمر وجهه كأنه منذر جيش يقول: «**صبحكم ومساكم**»، كما جاء ذلك في «صحيح مسلم» عن

جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: «**صبحكم ومساكم**» ويقول: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ويقول: «**أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**» ثم يقول: «**أنا أولى بكل مؤمن من نفسه؛ من ترك مالًا فلأهله، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإلي وعلي**».

وهذا هو هدي الصحابة والتابعين، فعلى الدعاة أن لا يرغبوا عن ذلك لمجارات أهواء الناس، فإن ذلك مخالف لهدي سيد المرسلين والمتبعين له بإحسان إلى يوم الدين .

وفي هذه الآية أيضًا إشارة إلى حال المدعوين، وأنهم إذا كان في الأمر نوع استهزاء أو ضحك لم تحصل لهم الفائدة المرجوة من وراء الموعظة، وفيها أن معهم طائفة لا يقبلون ذلك في مثل هذا المقام العظيم، وهذا هو اللائق بحال الداعية والمدعو.

فليتنبه لهذا بعض الدعاة هداهم الله الذين جعلوا من الطرائف والضحك والمزاح بضاعتهم التي يروجون بها دعوتهم؛ حتى صار ذلك ديدنًا لهم وسمة بارزة يعرفون بها فبئست السمة هذه. والله أعلم.

الاستنباط السبعون

من قوله تعالى:﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف:٦٩]،

فيه عدم جواز ترويع المسلم ووجوب إدخال السرور عليه خاصة إذا كان الآخر خالي الذهن مما يراد به وأن خلاف ذلك من المنكرات.

وقد جـاءت الأخبـار تنهى عن ترويع المسلم وإدخال الحزن عليه ولو بالمزاح.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار**». أخرجه البخاري ومسلم، وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال أبو القاسم ﷺ: «**من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي وإن كان أخاه لأبيه وأمه**». أخرجه مسلم.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ، فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع، فقال رسول الله ﷺ: « **لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا**». أخرجه أبو داود بسند جيد. والله أعلم.

الاستنباط الحادي والسبعون

من قوله تعالى: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠] فيه جواز التخوض في عرض المسلم إذا كان ذلك عن رضًا منه، ولمصلحة راجحة يمكن تحصيلها. والله أعلم.

الاستنباط الثاني والسبعون

من قوله تعالى ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف:٧٣] مع قوله تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ ... ﴾ الآية [المائدة:٣٣] ففيهما دليل على أن السرقة من الإفساد في الأرض، وأن السارق إذا استفحل أمره جاز إقامة حد الحرابة والإفساد في الأرض عليه. والله أعلم.

الاستنباط الثالث والسبعون

من قوله تعالى ﴿إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ [يوسف: ٧٩] فيه عظيم خلق يوسف عليه السلام، فمع أن أخاه قد أذن له بأن يتهمه بالسرقة إلا أنه لم ينسب أخاه إلى السرقة في جميع الآيات، بل قال في الأولى: ﴿أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ

لَسَارِقُونَ﴾[1] [يوسف: ٧٠] هكذا بدون تعيين، ثم قال في الثانية ﴿إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ [يوسف: ٧٩]، ولم يقل إلا من سرق . والله أعلم .

الاستنباط الرابع والسبعون

من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] مع قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ۞ قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٤، ٩٥].

في ذلك دليل على أن يعقوب ـ عليه السلام ـ لم يرسل جميع أولاده للبحث عن يوسف واستطلاع خبر ابنه بنيامين؛ بل أبقى عنده بعضهم بدليل الخطاب الذي في الآية الأخرى.

فبعضهم ذهب وبعضهم بقي عند أبيه، وهذا من إطلاق الكل وإرادة البعض وهو من الأساليب العربية الفصيحة كقوله تعالى:﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ... ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٣].

فمن المقطوع به أنه ليس كل الناس قالوا، وليس كل من في الأرض جمعوا . والله أعلم.

الاستنباط الخامس والسبعون

(١) تأمل استعمال التورية في هذا السياق، فهم فعلًا سارقون يوم أن سرقوا يوسف من أبيه، وجعلوه في غيابة الجب.

من قوله تعالى ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى الله كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فقد قال بعض الأكابر الفضلاء من أهل العلم بأن شعيبًا كان على الشرك قبل البعثة مع قومه، ثم أصلحه الله وتاب عليه واصطفاه وهذا القول فيه نظر، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد وفق وحفظ آحادًا من العباد إلى سلوك طريق الحق مع غياب الرسل، وهداهم إلى الحنيفية السمحة كأمثال قس بن ساعدة الإيادي، وورقة بن نوفل، وزيد ابن نفيل، ونحوهم ممن عرفوا بالحنفاء فلأن يحفظ الله ويوفق رسله إلى ذلك قبل أن يبعثهم بحيث لا يقارفون الشرك الأكبر بحال لهو من باب أولى وأجدر أما قولهم إن الله يحفظهم مما يقدح في شرفهم من الفواحش، ونحوها لئلا يعابوا بذلك من قبل أقوامهم، فيعرضوا عن اتباعهم.

فأقول لئن كانت الفواحش تقدح في الأخلاق، فإن الشرك يقدح في العقول، فإنه سفه في الرأي ونقص في العقل وجهالة في الأمر وطيش في الفعل مع مخالفته للفطر المستقيمة التي فطر الناس عليها، وهذا العيب أعظم وأشنع والمقصود أن عصمة الأنبياء والمرسلين من الوقوع في الفاحشة ليس بأولى من عصمتهم في الوقوع في الشرك الأكبر بل هذا أولى وأعظم، ولهذا تجد أن الله تعالى شنع على الكافرين ابتداء بشركهم وكفرهم مع أنهم كانوا يقارفون جملة من الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ مما يدل على أن الشناعة بالشرك أعظم منها بالفواحش؛ فتأمل.

أما قوله: **«بعد إذ نجانا الله منها»** فليس معناه أنه كان معهم بل هذا

من باب التقدم بين يدي الله بالحمد والشكر أن نجاه الله من الشرك مع كونه في بيئة عجت به وفرخت كمثل قول السلف إذا رأوا المبتلى: **(الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى الناس به)**[1] فليس معناه أنه كان معهم بل هو يحمد الله على أن نجاه من ذلك مع تواجده بينهم.

هذا الذي يظهر لي من هذه الآية. والله أعلم.

الاستنباط السادس والسبعون

من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] فيه دليل على أن هذا الملك لم يكن من المتجبرين كما هو حال أكثر الفراعنة الذين حكموا مصر، وذلك لأن الطاغية إذا أصدر أمرًا لم يسمح لأحد بالتخلف عنه أو التلكؤ فيه، وهذا الملك قال: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي: لن أحملكم ولن أسألكم ولن أعاقبكم على ما لا طاقة لكم به، وذلك بخلاف حال الطواغيت على مر العصور والأزمان الذين لا يقبلون لأقوالهم معارضًا ولا لأوامرهم مخالفًا،

---

(١) ورد مثل هذا في حديث مرفوع أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما من حديث ابن عمر وفي إسناده عمرو بن دينار مولى آل الزبير قهرمان اتفق أئمة السلف على ضعفه وسوء حفظه، ورواه الترمذي وغيره أيضًا من حديث أبي هريرة ولكن في إسناده عبد الله بن عمر العمري المكبر وهو ضعيف الحديث وله طرق أخرى لا يصح منها شيء كما في «الحلية» ولكن جاء في مصنف عبد الرزاق بسند صحيح من طريق عن معمر عن أيوب عن سالم بن عبد الله قال: كان يقال إذا استقبل الرجل شيئًا من هذا البلاء فقال الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلًا لم يصبه ذلك البلاء أبدًا كائنًا ما كان قال: معمر وسمعت غير أيوب يذكر في هذا الحديث قال لم يصبه ذلك البلاء إن شاء الله. فلا يصح الحديث مرفوعًا ولكن صح موقوفًا على سالم بن عبد الله. والله أعلم.

ولا لأحكامهم مستأنفًا أو ناقضًا فمن فعل فالسجون والمعتقلات والعذاب الشديد له بالمرصاد، كما أن لدى هذا الملك من الفراسة والذكاء ما جعله يبادر إلى تمكين يوسف وتأمينه بمجرد مخاطبته إياه، وفي سعيه لتقريب العلماء والأكفاء دليل على حسن سياسته وحنكته، وهذا كله مما يؤيد قول القائلين بإسلامه مع يوسف ـ عليه السلام ـ لله رب العالمين . والله أعلم .

الاستنباط السابع والسبعون

من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] فيه دليل على أن عقل المرء إنما يقاس بكلامه وحسن منطقه، وأن للصادقين لهجة صدق يعرفها المخاطبون لهم بها بينما للكاذبين من سوء المنطق ولحن القول ما يظهر على فلتات لسانهم، ولهذا قال تعالى عن المنافقين:﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

فلا ينفع جمال الصورة إذا فسد المخبر كما أنه لا يضر قبح الصورة إذا صلح المخبر.

وقد جمع الله لنبيه يوسف ـ عليه السلام ـ بين جمال المظهر وحسن المخبر، وكذلك سائر أنبياء الله تعالى، ولكن أجملهم صورة هو يوسف عليه السلام كما أن أحسنهم مخبرًا هو نبينا محمد، عليه الصلاة والسلام. والله أعلم.

الاستنباط الثامن والسبعون

من قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ الله لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ الله عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف:٦٦] فيه دليل على مشروعية إعطاء العهود والمواثيق وإن كانت بالله جل وعلا مع الاستثناء وأن ذلك بحسب القدرة والإمكان، ففيه معنى قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومعنى الحديث الذي في إسناده ضعف: «**تجاوز لي ربي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[1] وعليه فمن أفرغ وسعه في الوفاء فهو كذلك وإلا فلا لوم عليه بعد إفراغ الجهد في تحصيل الأمر. والله أعلم.

---

(١) قال ابن أبي حاتم في العلل: سألت أبي عنها، فقال هذه أحاديث منكرة كأنها موضوعة، وقال في موضع آخر لم يسمعه الأوزاعي من عطاء، ولا يصح هذا الحديث، ولا يثبت إسناده. وقال عبد الله ابن أحمد في «العلل» سألت أبي عنه فأنكره جدًّا، وقال ليس يروى هذا إلا عن الحسن عن النبي ﷺ، ونقل الخلال عن أحمد قال: من زعم أن الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فإن الله أوجب في قتل النفس الخطأ الدية والكفارة يعني من زعم ارتفاعهما على العموم في خطاب الوضع أو التكليف.
قال محمد بن نصر: عقب إيراده ليس له إسناد يحتج بمثله، وضعفه الدارقطني، ورواه العقيلي في «الضعفاء»، وكذا البيهقي وقال: ليس بمحفوظ عن مالك، ورواه الخطيب عن مالك، وقال: إنه منكر عنه، والحديث يروى عن ثوبان، وأبي الدرداء وأبي ذر، ولا يصح من ذلك شيء، كما تقدم إعلال الأئمة له بمجموع طرقه، وهذا يؤكد أن الأئمة المتقدمين ما كانوا يعبئون بكثرة الطرق إذا كان أصل الحديث ليس بمحفوظ أو لا يعرف إلا مرسلًا ونحو ذلك، ولهذا قلما تجد حديثًا صححه الأئمة المتقدمون بمجموع طرقه، وذلك بخلاف تعامل الفقهاء والمتأخرين من المحدثين، والشأن كل الشأن في تعامل الأئمة المتقدمين أصحاب وأئمة هذا الشأن نقاد الحديث والمستبصرين فيه. والله أعلم.

الاستنباط التاسع والسبعون

من قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإن هناك معنى لطيفًا ألا وهو أن السبب الرئيسي وراء منع الناس الحقوق سواء حقوق الله تبارك وتعالى، أو حقوق العباد هو عدم الإخلاص في الصلاة وعدم الخشوع فيها، فبعد أن ذكر تبارك وتعالى أنواعًا من الظلم والجهل التي يقع فيها العباد من تكذيب وتعد ومنع للخير توعد المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، وكأن الأمر أن من أراد النجاة من تلك الخصال الذميمة فعليه بالإخلاص والخشوع في صلاته والحرص على أدائها كما أمر الله تبارك وتعالى، فإنها نعم العون على فعل الخيرات وترك المنكرات، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٦] أي: من لم يفعل ذلك وقع في المحذور، فقلَّ خيره وكثر شره وظلمه وتعديه سواء في حقوق الله تبارك وتعالى، أو في حقوق المخلوقين، أو في حق نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا ۞ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٣]. والله أعلم.

الاستنباط الثمانون

من قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]، ونحو ذلك من الآيات الكثيرة في هذا الصدد، فهذه الآيات تدل على أن هؤلاء المشركين كانوا على علم وبصيرة بما يفعلون، فهم يقرون أنهم كانوا يعبدون تلك المعبودات الباطلة ولذلك كان الحوار كله منصبًّا على تقرير أن هؤلاء لا يستحقون شيئًا من العبادة أن تصرف إليهم، وهذا بخلاف المسلمين الذين يقعون في شيء من أنواع الشرك ظنًّا منهم أن هذه من القربات التي تقدم بين يدي الله جل وعلا؛ إما لتأويل فاسد أو جهل معتبر، أو تضليل أئمة مضللين، ولم يكونوا يفعلون ذلك على وجه التعبد للمخلوق؛ بل يريدون بذلك رضا الخالق تبارك وتعالى، ومن هنا يظهر الفرق بين المشرك الأصلي وبين المسلم الذي وقع وتلبس بنوع من أنواع الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، فالأول لا يعذر لكونه انتفى عنه الجهل بذلك؛ بل هو مقر بكفره وشركه حالة كونه معترفًا مقرًّا بأنه يعبد مع الله آلهة أخرى، ولكونه لم يدخل في الإسلام أصلًا فهو باق على كفره وشركه بخلاف الثاني المسلم، فإنه يعتقد أنه يتعبد لله تبارك وتعالى من خلال هذه القرب وشتان بين النوعين، فالفرق بهذا ظاهر جدًّا ولذلك ما كان لنا أن نقدم على إلحاق حكم الكفر بأعيان المسلمين الذين تلبسوا بشيء من الشرك أو الكفر، ووصمهم به حتى نبين لهم حقيقة الأمر ونجليه لهم لإقامة الحجة عليهم. هذا كله في معرض الكلام على الأعيان أما النوع فإننا نقول: إن هذا الفعل كفر أو شرك أكبر بحسب الفعل المعمول به. أما الحكم على الأعيان فلا يتم إلا بعد إقامة الحجة، وهذا هو المعروف عند أهل السنة والجماعة بتوفر الشروط، وانتفاء الموانع في تكفير المعينين من أهل القبلة.

ولهذا لو سألت المشركين الأوائل هل تعبدون اللات والعزى؟ لأجابوا: بنعم، بينما إذا سألت أحد المسلمين ممن تلبس بالشرك هل تعبد فلانًا؟ فتجد أن أكثرهم ينفي ذلك ويستعظمه، ويقول: بل أنا أعبد الله.

نعم! هناك منهم من يصرح بأنه يعبد المخلوق، كما صرح بذلك إمام الطائفة البرهانية، وهو المدعو محمد عبده البرهاني بأنه يعبد محمدًا ﷺ كما في كتابه «تبرئة الذمة»، فمثل هذا الأمر فيه واضح جلي في كفره وزندقته؛ بل حتى المجمع الصوفي بمصر أصدر بيانًا بكفر هذه الطريقة البرهانية. والله أعلم.

الاستنباط الحادي والثمانون

من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] فيه أن العبد إذا أراد أن يغير منكرًا يعايشه، وقد فشا في أرضه أن يكون ذلك أولًا بمنابذة القوم حال وقوعهم في ذلك المنكر إلا على وجه الإنكار عليهم، وبيان الحق لهم وأن يكون القيام لله وحده لا شريك له، لا لحظ من حظوظ الدنيا؛ بل ابتغاء مرضاة الله وهذا هو حقيقة تغيير المنكر وإنكاره، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ الله جَامِعُ المُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، فلا يجوز البقاء في مكان المنكر إلا على وجه إنكاره والسعي في تغييره، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وإلا فلا كما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**». أخرجه مسلم.

وحقيقة إنكار المنكر ما قرره النبي ﷺ كما في «الصحيحين» من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب**»، فمن أنكر بقلبه فكيف يسوغ له البقاء في مكان المنكر، فالقلب سيد الجوارح، فإن أنكر فعلامة ذلك أن يأمر الجوارح بالخروج من مكان المنكر، فإن أنكر وبقي في محله، أو خالط أصحاب المنكرات دون إنكار، أو أنكر وبقي فإنه لم تتمثل فيه حقيقة الإنكار المراد شرعًا، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، وأخرج الإمام أحمد وأصحاب السنن بمعان متقاربة من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم** ـ قال يزيد: وأحسبه قال: **في أسواقهم ـ وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود، وعيسى ابن مريم**»، وفي لفظ أبي داود: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال:**﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَايَتَنَاهَوْن عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوه لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨، ٧٩]، ثم قال: «**كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر**

ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا أو تقصرنه على الحق قصرًا».

وهذا الحديث ضعفه جماعة لأنه من رواية أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود قالوا: ولم يسمع من أبيه ولكن قال بعض الأئمة: إنه يروي عن أبيه بواسطة أهل بيته وأهل بيته، كلهم ثقات وعليه فالخبر جيد متصل، وإن قيل إنه ضعيف؛ إلا أن أهل التفسير حملوا معنى هذه الآية على ما جاء في هذا الخبر. والله أعلم.

الاستنباط الثاني والثمانون

من قوله تعالى:﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]، فيه أن المكان إذا أسس للإفساد في الأرض وحرب الدين وأهله أنه يحرم التواجد فيه مهما كانت المصالح المرتقبة، كحال أجهزة الدمار الشامل من تلفاز ودشوش وما أشبه ذلك من المرئيات والمسموعات والمقروءات، فهذه يجب البعد عنها ألبتة لأنها ما أنشأت إلا إرصادًا لمن حارب الله ورسوله لتبقى دور الباطل ومؤسساته واضحة للعيان؛ لا لبس فيها على أحد ولأنها دور يمقتها الله تعالى، والظهور فيها يضفي عليها شرعية تلبس على العامة أمر دينهم، وتكون فتنة للمفتونين، وقد نهى الله تعالى عباده أن يلبسوا الحق بالباطل.

أما إذا كان المنكر ملازمًا للمكان مع كون المكان لم ينشأ في الأصل للإفساد؛ بل جاء المنكر فيه عرضًا لا أصلًا، فإن كان عاجزًا عن إزالته وجب عندها مقاطعة المكان بالكلية حتى يزال ذلك المنكر مع السعي في إنكاره، وإزالته بصورة أو بأخرى.

أما إن كان قادرًا على الإنكار، فإنه يحضر وينكر ويبين الحق، كما كان النبي ﷺ يفعل في سوق ذي المجاز، فعن أشعث قال:-حدثني شيخ من بني مالك بن كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: «**يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»، قال: وأبو جهل يحثي عليه التراب ويقول: يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى. قال: وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ. رواه أحمد وسنده جيد.

هكذا كان هدي النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصحابته الكرام وهذا هو مقتضى القياس الصحيح ويشهد لذلك هذه الآية الكريمة. ويعذر المرء في الرجوع عن الدعوة، وترك الإجابة بدليل ما روى سالم بن عبد الله بن عمر قال: أعرست في عهد أبي، فآذن أبي الناس، فكان أبو أيوب فيمن آذن وقد ستروا بيتي بخباء أخضر، فأقبل أبو أيوب مسرعًا فاطلع فرأى البيت مستترًا بخباء أخضر فقال: يا عبد الله أتسترون الجدر؟ فقال أبي واستحيا: غلبتنا النساء يا أبا أيوب. فقال: من خشيت أن يغلبنه فلم أخش أن يغلبنك.

ثم قال: لا أطعم لكم طعامًا ولا أدخل لكم بيتًا، ثم خرج. أخرجه الأثرم. والله أعلم.

الاستنباط الثالث والثمانون

من قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقوله تعالى:﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١] فيه

دليل على أن الذكر لله تعالى أعم من أن يكون باللسان، فحسب فالقلب يذكر والعين تذكر بل حقيقة الذكر أن يذكر العبد ربه على كل أحواله ويتعبده بجميع كيانه متدبرًا في أسمائه وصفاته متجولًا بفكره في آياته ومخلوقاته عاملًا بجوارحه في مرضاة ربه تبارك وتعالى، فيزداد العبد تعظيمًا وتوحيدًا لخالقه وموجده من العدم الله جل جلاله، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فالذكر كما يكون باللسان يجب أن يكون بالجوارح والجنان كذلك. والله وأعلم.

الاستنباط الرابع والثمانون

من قوله تعالى: ﴿وَالله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ الله مَا يَشَاء إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾ [النور: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِم إِذَا يَشَاء قَدِير﴾ [الشورى: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لا تَحْمِل رِزْقَهَا الله يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

فيه أن جميع الدواب يرزقها الله تبارك وتعالى كل بحسبه، فمنهم من يكون رزقه معنويًّا، ومنهم من يكون رزقه حسيًّا، ومنهم من جمع له بين هذا وذاك. ودليل الرزق المعنوي قوله ﷺ: «**إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني، فاكلَفوا من العمل ما تطيقون**». «متفق عليه»من حديث أبي هريرة.

ويشهد لذلك قوله تعالى﴿ :وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ١، ٢]، فأعظم نوعي الرزق قوت القلوب الذي به انشراح الصدور، وعندها فلا تسل عن مدى تحمل العبد لفقد الرزق الحسي. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. فالملائكة فيما يظهر والله أعلم لا يأكلون وإنما قوتهم في طاعة الله بالذكر وامتثال الأوامر. والله أعلم.

الاستنباط الخامس والثمانون

من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ۞ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۞ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۞ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۞ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦] فيه أن هذا العلم لا ينبغي أن يبذل لمن يستنكف عنه ويستكبر، ولا لمن طلبه لعرض من أعراض الحياة الدنيا؛ بل أمر العلم شريف عال رفيع المكانة والمنزلة هو بأيدي سفرة كرام بررة، فليس هو مبتذلًا يلاحق به العباد؛ بل هو عزيز تبذل في سبيله الأعمار والأموال، والغالي والنفيس، فإنه يُؤتى ولا يأتي، فلابد من الذل والتواضع حال طلبه، وإلا فهيهات هيهات.والله أعلم.

الاستنباط السادس والثمانون

من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۞ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٤، ٥٥] فقد احتج بعض أهل

العلم بهذه الآية على جواز طلب الإمارة إذا كان يرى العبد نفسه أهلًا لذلك.

ولكن في هذا الاستدلال بهذه الآية نظر، وهذا هو الاستنباط فإن الآية لم تَذْكُر بتاتًا أن يوسف ـ عليه السلام ـ طلب الإمارة ابتداء، وإنما الآية تدل على أن الملك أراد أن يستخلص يوسف لنفسه فقال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] أي: ممكن مؤتمن لدينا فعرض عليه التمكين والتأمين وهذا لا يتم إلا بتوليته أحد المناصب، فلما رأي يوسف الجد من الملك في ذلك اختار أن يكون على الأموال حافظًا وخازنًا ومنفقًا، فكان قول يوسف عليه السلام﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ من باب الاختيار لأمر عرض عليه، لا من باب الابتداء لذلك.

فالملك عرض ويوسف ـ عليه السلام ـ اختار، وهذا ما قرره شرعنا فمن عرضت عليه فقبلها أعين عليها ومن لاحقها وطلبها خذل كما جاء في «الصحيحين» عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها**».

فليس في الآية حجة لمن قال بجواز طلب الإمارة وإن ظن من نفسه خيرًا وأنه أهل لها كما أنها من تزكية النفس ومن هنا يكون الخذلان والعياذ بالله.

على أن مسألة جواز طلب الإمارة في أمور الدنيا مسألة خلافية بين أهل العلم ليس هذا محل بسطها، ولكن الحديث على الاستدلال بالآية على الجواز من عدمه، ولا يخفى أن شرع من قبلنا شرع لنا على ـ الراجح ـ ما لم يعارضه شرعنا، وقد وردت الأحاديث الصحيحة في شرعنا التي تمنع من طلب تولي الإمارة، ولكن وكما تقدم بيانه أن هذا أصلًا لم يثبت في شريعة من قبلنا، لأن الاستدلال بالآية المتقدمة من قصة يوسف ـ عليه السلام ـ فيه نظر. هذا الذي يظهر لي. والله أعلم.

الاستنباط السابع والثمانون

من قوله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فقد حمل أكثر العلماء هذا الاصطفاء على أنه اصطفاء له على أهل زمانه.

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، الاصطفاء: الاجتباء؛ أي: فضلتك. ولم يقل على الخلق؛ لأن من هذا الاصطفاء أنه كلمه، وقد كلم الملائكة وأرسله وأرسل غيره. فالمراد ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ المرسل إليهم. انتهى.

وقال ابن كثير: كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه.

وقد انقدح في الذهن معنى آخر لا يخالف القواعد الشرعية؛ بل هو من أظهر الأقوال في معنى هذه الآية التي أشكل معناها على نفر ليس بالقليل فأقول وبالله التوفيق وله الحمد والفضل والمنة:

إن الاصطفاء المذكور في هذه الآية هو أنه لم يسبق لنبي أن اصطفاه الله تعالى بتكليمه بالرسالة أبدًا إلا موسى ـ عليه السلام ـ حيث إن الله تعالى بعثه مرسلًا إياه إلى فرعون، فكلمه بذلك كفاحًا بدون واسطة ولا ترجمان، فكان هذا هو الاصطفاء المذكور في هذه الآية، فإن الله تعالى قال:﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء

إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

فكان حظ موسى ـ عليه السلام ـ أن أرسله الله تعالى مكلمًا إياه مباشرة بالرسالة بخلاف باقي الرسل، فقد ثبت أن الله تعالى كلم بعضهم كفاحًا بدون ترجمان، ولكن ليس في شأن الرسالة والنبوة، فقد كلم إبراهيم ـ عليه السلام ـ في قصة إحياء الطير، وكلم نبينا محمدًا ﷺ في شأن فرض الصلاة وهكذا.

أما أصل الرسالة والإرسال فإن هذا كان عن طريق إرسال جبريل إليهم؛ إلا أن موسى عليه السلام كلمه الله تعالى بنفسه بالرسالة فقال: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۞ إِنَّنِي أَنَا الله لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۞ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۞ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ۞ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ۞ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ۞ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۞ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ۞ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ۞ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ۞ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۞ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۞ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۞ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۞ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۞ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ١٣ ـ ٣٦].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۞ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ المقَدَّسِ

طُوًى ۞ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ۞ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ۞ فَكَذَّبَ وَعَصَى ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ۞ فَحَشَرَ فَنَادَى ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۞ فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ١٥ ـ ٢٥].

والخلاصة:

أن سائر الأنبياء والمرسلين إنما كان ابتداء إرسالهم عن طريق جبريل ـ عليه السلام ـ إلا موسى ـ عليه السلام ـ فإن الله تولى ذلك بنفسه، فكان هذا هو وجه اصطفائه على الناس برسالته وكلامه.وإذن فاصطفاء موسى ـ عليه السلام ـ كان في شأن الرسالة أنها كانت من الله مباشرة حيث كلمه مرسلًا إياه.والله أعلم.

الاستنباط الثامن والثمانون

من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُون﴾ [الشعراء: ١٢٤]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾،وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُون﴾ [الشعراء: ١٦١].

هذا لبيان أن الأخوة إذا أطلقت قد يراد بها الأخوة في الإنسانية باعتبار

أن الكل يعود إلى آدم وحواء ـ عليهما السلام[1] ـ وهذه أعمها، ويليها أخوة العشيرة والقبيلة ثم أخص منها أخوة الرضاعة، ثم أخص من ذلك أخوة النسب، ثم أخص أنواع الأخوة وهي التي أرادها الشارع وأحبها ورغب فيها وجعلها المقياس الدقيق والصحيح للإيمان هي أخوة الدين فإذا تعارضت الأخوات الثلاثة المتقدمة، أو أحدها مع أخوة الدين أو مع شرع رب العالمين وجبت البراءة من كل هذه الأخوات لتبقى أخوة الدين هي الشامخة العالية على كل ما عداها من الأخوات، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جدًّا، وكذلك الأحاديث الصحاح.

فإذا كان الله تعالى نفى البنوة عن ابن نوح لما كان عملًا غير صالح، كما قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ ۞ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ

(١) اعلم أن بني آدم كلهم يعود أصلهم إلى آدم عليه السلام إما من الأب والأم معًا أو من الأم فقط، كما في حالة مريم وعيسى ـ عليهما السلام ـ فعيسى عليه السلام هو من ولد آدم عن طريق أمه فهي مريم ابنة عمران ـ عليهما السلام ـ ولهذا قال النبي ﷺ في قصة معراجه إلى السماوات لما قابل عيسى ـ عليه السلام ـ في السماء الثانية.قال ﷺ :«فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت عليهما ، فسلمت فردا ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح». أصله في «الصحيحين»،واللفظ للبخاري. وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الحسن ـ رضي الله عنه ـ :«إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» أخرجه البخاري. مع أن الحسن ـ رضي الله عنه ـ هو ولده من فاطمة.

وكذلك عيسى ـ عليه السلام ـ هو ابن آدم ـ عليه السلام ـ من طريق أمه مريم بنت عمران ـ عليهما السلام ـ.

وهذا الأمر واضح بَيِّن ولولا أنه قد ظهر في بلادنا من يدعي أنه عيسى ابن مريم ـ مع أن اسمه سليمان أبو القاسم واسم أمه دار السلام ـ مستعملًا التلبيس والتدليس والتمويه، ولوي أعناق الأدلة والنصوص، واغتر به بعض الجهلاء والبسطاء والمفتونين، وكان مما قاله ولبس فيه أن عيسى ـ عليه السلام ـ ليس من ولد آدم افتراءً على الله، وقد يسر الله الرد عليه في رسالة قدمت لها لفضيلة الشيخ الزاهد «عبد الكريم الحميد» بعنوان «الرد الصارم على المتنبئ (سليمان أبي القاسم) ».والله أعلم.

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]. فمن باب أولى أن لا تكون للأخوة النسبية اعتبار إذا تنافت مع أخوة الدين والإيمان، وهذا إبراهيم عليه السلام تبرأ من أبيه لما عادى دين الله تبارك وتعالى، وصار عدوًّا لله كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. والأمر كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ وَالله لاَ يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٣، ٢٤].

ومن الروائع الإيمانية التي ضربها الصحابة الكرام البررة ما رواه الواقدي في كتابه «المغازي»، وحدثني أيوب بن النعمان قال: وأسر يومئذ أبو عزيز ابن عمير، وهو أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، وقع في يد محرز بن فضلة فقال مصعب لمحرز: أشدد يديك به فإن له أُمًّا بمكة كثيرة المال فقال له أبو عزيز: هذه وصاتك بي يا أخي؟ فقال: إن محرزًا أخي دونك فبعثت أمه عنه بأربعة آلاف.اهـ.وقال ابن هشام في «السيرة»: وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، فلما قال أخوه مصعب بن عمير لأبي اليسر وهو الذي أسره ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي، فقال له مصعب: إنه أخي دونك. فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي فقيل لها: أربعة آلاف درهم فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها. اهـ.

والله تعالى يقول:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ

إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]. وقال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا**». وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**». وغير ذلك كثير جدًّا مما يدل على هذا المعنى العظيم وهذه الأخوة الإيمانية.

فأين هذه المعاني الكبار والمقامات العالية التي تقرر ملة إبراهيم التي قامت على الولاء والبراء في الله رب العالمين، وصنفت الناس على مقياس ومعيار التقوى والاستقامة على شريعة الله تبارك وتعالى ممن ينادون بالمواطنة والتقارب الديني والتعايش السلمي على مبدأ الأخوة العامة إما في

العشيرة أو في الإنسانية؟ فالله المستعان فما أشد غربة ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ بين كثير من المنتسبين لهذا الدين اليوم حتى على مستوى المثقفين، وبعض طلاب العلم بل وبعض العلماء الذين يشار إليهم بالبنان الذين نخوفهم بالله تعالى أن يكونوا من علماء الضلالة وأئمة الإضلال. نعوذ بالله من ذلك كله .

الاستنباط التاسع والثمانون

من قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۞ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ ۞ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۞ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢٥].

فإن هذه الآية تقرر وتبين فضل أتباع الرسل وأنهم خير الناس للناس، وأنهم أعمق الناس فَهْمًا للدين وهم أعلم الناس بعد الرسل بشرع رب العالمين خلافًا لما تقوله الرافضة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم الدين في الصحابة الكرام البررة المهديين، وخلافًا لبعض المفتونين بالشهادات العلمية والمناصب الدنيوية الذين أحسنوا الظن بعلومهم وعقولهم وفهومهم، فظنوا أنهم سبقوا الصحابة في سبر غور الإيمان، ومعرفة حقائق الإسلام والترقي في مقامات الإحسان، وهذا من أعظم الخذلان والعياذ بالله من ذلك.والله أعلم.

الاستنباط التسعون

من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ البَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

ذكر الله تعالى في هذه الآية وما شابهها من الآيات حجة المشركين يوم القيامة، وأنهم يقولون لو شاء الله ما وقعنا فيها وقعنا فيه من الشرك والضلال.

وهذا الكلام في الظاهر هو حق إذ أنه لا يكون شيء إلا بإذن الله، فلماذا إذن لم يقبل الله تعالى هذه المقولة؟ بل ووبخهم عليها وجعلها علامة على نقص أو ذهاب عقولهم؟.

إن كثيرا من الناس قد يشكل عليه هذا المقام، ونحن وإن كنا قد نُهينَا عن الخوض في القدر إلا أن النهي منصب على الخوض فيه بغير علم، أو أن يكون خوضًا يتضمن الاستدراك أو التسخط والاعتراض. عياذًا بالله.

والجواب على هذه الشبهة التي قد يلقيها الشيطان على بعض المفتونين أعاذنا الله وإياكم من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن. هو على النحو التالي:

إن هذه المقولة هي كلمة حق أريد بها باطل؛ حيث إنهم قالوا هذا على وجه التخرص والتخبط والظن، فمن أين لهم أن يعلموا بما قضاه الله عنده وما شاءه لهم في حين أن لديهم الأمر الشرعي القطعي البين الواضح. يأمرهم

بإفراد الله تعالى وحده بالعبادة، وينهاهم عن جميع أنواع الشرك أصغره وأكبره؟ فقد أرسل الله بذلك الرسل وأنزل الكتب، ومع ذلك كله تركوا الأمر الشرعي اليقيني، وأقبلوا على الظن والخرص ولهذا رد الله عليهم ذلك بقوله تعالى:﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

نعم! هكذا تتبدد هذه الشبهة الباطلة الجائرة، وهكذا ينهد بنيان الباطل أمام هذه الحجة البالغة :﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، نعم! كما قال تعالى:﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، فَحُقَّ لمن اتبع الظن والخرص وترك اليقين والحق أن يكون من الهالكين المعذبين.

وبنحو ذلك نرد على من احتج بالقدر على مزيد من الغي والضلال والانحراف، فنقول له من أين لك أن تعلم أن الله قد كتب عليك الضلال؟! هذا ظن وخرص؛ فدع هذا وأقبل على الأوامر الشرعية، فإنها يقين وحق محض وأحسن الظن بربك بإحسان العلم والعمل.

إذن لم يقبل الله تعالى هذه المقولة التي في ظاهرها أنها حق؛ لأنها أريد بها باطل؛ لأنهم اتبعوا الظن، وتركوا العلم اليقيني فكانت الهلكة والعياذ بالله.والله أعلم.

الاستنباط الحادي والتسعون

من أول سورة الأنفال وآخرها حيث قال تعالى في أولها:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، ثم قال في آخرها:﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فالكل قال الله تعالى فيه: ﴿أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠].

ولكن لا سواء ولهذا قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]، فالآيات تبين أن من آمن وعمل صالحًا وإن لم يجاهد بالسنان أنه على خير ولكن أفضل منه وأعظم درجة من آمن وعمل صالحًا وجاهد في سبيل الله، هذا إذا لم يكن الجهاد فرض عين؛ فإن من ترك الجهاد حال تعينه عليه، فهو إلى الإثم أقرب منه إلى السلامة بل هو آثم ما لم يحل دون ذلك حائل معتبر شرعًا.

ولكن ينبغي للمؤمن أن يحدث نفسه بالغزو مع الصدق في ذلك حتى لا تكون فيه شعبة من شعب النفاق؛ كما قال النبي ﷺ كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق**».

قال ابن سهم: قال عبد الله بن المبارك فنرى أن ذلك كان على عهد رسول الله ﷺ. والله أعلم.

الاستنباط الثاني والتسعون

في قوله تعالى: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والاستنباط متعلق بقوله تعالى: ﴿لا تَأْخُذُهُ﴾، ففي ذلك معنى أن: الله لا مكره له ولا غالب له سبحانه جل الله في علاه، أما المخلوق: فإن السِّنَة والنوم تأخذه من حيث لا يشعر كرهًا لا حيلة له في رد ذلك، فهو مغلوب بها وبالنوم وهذا القدر دال على كمال الخالق، ونقص المخلوق جل الله في علاه. والله أعلم.

الاستنباط الثالث والتسعون

من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل؛ فسدت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم: فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالًا، فنأى بي في طلب شيء يومًا؛ فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا؛ فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى**

برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة؛ فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج.

قال النبي ﷺ وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس **إلي فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين؛ فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا** قدرت عليها قالت: **لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه؛** فتحرجت من **الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه؛** فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

قال النبي ﷺ: وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له، وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله! أدَّ إلي أجري فقلت له كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق؛ فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت إني لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئًا، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه؛ فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون» «متفق عليه»واللفظ للبخاري .

لقد رجح جمع من أهل العلم والفضل أن أعظم هذه الأعمال الثلاثة هو ما قام به الرجل مع ابنة عمه، والمتأمل يجد أن أفضلهم هو الثالث صاحب الأمانة الكبيرة الذي نَمَّى المال لأجيره وادخره له وهذا هو الاستنباط وذلك لوجوه:

أولًا : أن هذا هو ظاهر الخبر فالروايات دالة على أن سبب انفراج الصخرة على وجه يمكنهم الخروج معه هو بعد دعاء الرجل الثالث؛ مما يدل على أنه أعظمهم عملًا وأكبرهم منزلة عند الله تعالى .

ثانيًا : أن الترتيب الوارد في الخبر دال على ذلك أيضًا، وقد ساقه النبي ﷺ مساق الثناء والحث على التشبه بهم، فكان التدرج من الأدنى إلى الأعلى.

ثالثًا : أن الأول إنما عظم عمله، لأنه خاف من الله تعالى فصنع هذا البر بوالديه، وهذا أحد وجوه الإحسان وأبوابه العظام، والثاني إنما عظم عمله لخوفه من الله تعالى ولأمانته، أما الثالث فقد جمع كل ما تقدم فقد خاف وأحسن وكان أمينًا، فكان أعظمهم منزلة وإنما تعظم الأعمال بحسب ما توفر فيها من طاعة الله جل وعلا، كما أنه إذا كان قد أوصل هذا الحق العظيم لهذا الأجير الغريب الذي كان بإمكانه ألا يفعل ذلك به، كان ذلك دالًّا بقياس الأولى على أنه محسن لوالديه وأقاربه، فإن كان هذا صنيعه بالبعيد فكيف بالقريب؟!

لا شك أنه من باب أولى، وكذلك إذا بلغت به أمانته وعفته ومراقبته لربه هذا المبلغ العظيم، فمن باب أولى أن يتعفف عن أن يزني بأقاربه.والله أعلم.

الاستنباط الرابع والتسعون

من قوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ [طه: ٥٨]، قال فرعون: بسحر مثله، ولم يقل: فوقه ولا أعظم منه لأنه رأى ما لم يره من قبل، فقد سبر أحوال السحرة وعرف أنواع السحر؛ إذ هو الآمر به في مملكته فعلم في قرارة نفسه أنه عاجز أن يأتي بأعظم من هذا السحر وحسبه إن تيسر له ذلك أن يأتي بمثله.

وفي هذا القدر دليل على أنه علم أن موسى رسول من رب العالمين؛ لأن الذي جاء به موسى لا حول للعباد فيه ولا قوة لهم عليه، وأن هذا لا يتأتى إلا ممن بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير، فقد انبهر قلبه وطاش عقله لأنه رأى ما لا قدرة له عليه، ولهذا ومع أنه بين أتباعه الذين أَلَّهُوهُ لم يستطع أن يتبجح ويستكبر، كما هي عادته فلم يقل بأعظم منه ولا فوقه بل قال بسحر مثله.

على أنه إن تيسر له ذلك وهذا محال لما عدا أن يكون مُنَازَعًا في ادعائه للربوبية إذ إن هناك من يفعل كفعله، ويقدر كقدرته فغايته أن يكون شريكًا لا متفردًا، مع أنه يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] ويقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

وفي هذا القدر دليل على أنه ليس هو المتصرف في هذا الكون العظيم، وأن المتصرف فيه هو الله رب العالمين، ولهذا تحدى الله تعالى خلقه أن يخلقوا كخلقه، أو أن يفعلوا كفعله، أو أن يقدروا كقدرته قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، كما أن في ذلك أبلغ دليل لقومه لو كانوا يعقلون أن فرعون ليس برب للعالمين، ولا هو إله الأولين والآخرين إذ كيف يقف عند المثلية، وتكون هي غاية ما يتطلع إليه في هذا المقام الذي هو مقام تحد وإظهار للقوة والغلبة، ولكن قومه لا يفقهون؛ فالأمر كما قال تعالى : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ولهذا يشهدون على أنفسهم بالخطل والضلال والجنون: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، كما قال تعالى: ﴿تَالله إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

قال تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١] .والله أعلم .

الاستنباط الخامس والتسعون

من قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ۞ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۞ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٠ ـ ١٣٢].

حيث أمر الله تبارك وتعالى بدوام ذكره في جميع الأوقات وسائر الأحوال بشتى أنواع الذكر الحسي والمعنوي، وحتى لا يظن ظان أن هذه الديمومة على الذكر تعطل عن طلب الأرزاق، وحتى لا يقول قائل: فمتى أطلب الرزق إن كانت هذه هي الحالة التي أمر الله تعالى بها وأرادها من عباده جاءت الآيات بعدها مباشرة مطمئنة للعباد مصرحة بضمان الرزق لمن كان هذا شأنه، وبَيَّنَ أن خير الرزق: رزق القلوب، وأن رزق القلوب إذا حصل فإن رزق الأبدان يأتي تبعا لذلك وليس العكس، وأن الله تعالى يوفق المعتني بشأن دينه ودين أهله إلى قوام عيشه ورزق بدنه، والله تعالى يقول:﴿وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وليس المعنى ترك طلب الرزق؛ فإن هذا من التواكل ولكن على العبد أن يعلم أن أفضل معين على تحصيل الأرزاق ذكر وطاعة رب البريات. فالله المستعان وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . والله أعلم .

الاستنباط السادس والتسعون

من قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] هذا التدرج في الذكر لهذا المعاني الكبار إنما ليتعلم العباد ما هو المطلوب منهم حتى يكون دينهم مستقيمًا قائمًا لا اعوجاج فيه، ففي قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا الله﴾، فالحصر بعد النفي يفيد التخصيص، والمعنى أي: لم يؤمروا بشيء سوى أن يحققوا العبودية لله الواحد القهار، كما بينت الآية أننا لم نأمرهم بشيء فيه غضاضة عليهم بل دعوناهم إلى عز الدنيا، وشرف وسعادة الآخرة مع كمال غنانا عنهم، فبين الله جل وعلا في هذه الآية أن كل أمر، أمر الله به إنما يصب في مصب واحد ألا وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذا الأمر عام في جميع أنواع العبادات، وبما أن العبادة ذل وانقياد ومحبة. دلت هذه الآية على أن النفوس لابد أن تكون متهيئة لقبول هذه الأوامر وتلقيها دون اعتراض ولا تردد، وهم في ذلك ذليلون محبون للذي أمر بها وهو الله رب العالمين؛ ثم ولئلا يظن البعض أن مجرد الانقياد والذل يكفيان في تحقيق هذه العبودية؛ قال بعدها ﴿مُخْلِصِينَ﴾ لأن البعض قد ينقاد ويذل في الظاهر خوفًا أو كيدًا ومكرًا للدين وأهله؛ كالمنافقين والعلمانيين وأشباههم فلهذا قال ﴿مُخْلِصِينَ﴾ أي: لابد أن تعمر قلوبهم بالإخلاص لله في هذا، فلا رياء ولا سمعة ولا تكثر، ولا كيد ولا مكر، حتى يكون هناك تواطؤ بين الظاهر والباطن، قولًا وعملًا واعتقادًا؛ فإن قيل أليس الأمر بالعبادة متضمنًا لهذا قلنا نعم! ولكنه التعميم ثم التخصيص الذي يفيد أهمية المخصص وأنه من أهم الأمور في قضية العبادة لله رب العالمين؛ لأن الله تعالى لا يقبل الأعمال

التي يشوبها الشرك أو يعكر صفوها الكفر أو النفاق، فلا بد أن يكونوا مخلصين في عباداتهم لربهم وحده لا شريك له، ثم ولئلا يظن البعض أن مجرد الإخلاص كاف في تحقيق العبودية والاستقامة على أمر الله ، قال تعالى ﴿لَهُ الدِّينَ﴾، فلا دين إلا دين الله ولا شرع إلا شرعه، فلابد من انقياد وذل وإخلاص على وفق دين الله جل وعلا؛ لا حسب الأهواء والعادات والتقاليد وفعل الأكثر من الناس وضغط الواقع، بل العبودية منهج متكامل للحياة من المهد إلى اللحد فلا ينفك العبد قدر أُنملة عن عبوديته لله جل وعلا، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٦٢، ١٦٣]، فلابد من تحكيم شرع الله تبارك وتعالى في جميع مناحي الحياة، فلابد من الإخلاص والانقياد والمتابعة لشرع الله في كل صغير وكبير، ثم ولئلا يظن العباد أن هذا وحده كاف في تحقيق المعنى العام للعبودية؛ قال تعالى ﴿حُنَفَاءَ﴾ ليبين أن هذا كله لا ينفع إلا إذا كان على الملة الحنيفية السمحة ملة إبراهيم، والتي أبرز مميزاتها وأظهر صفات أهلها الحب في الله والبغض في الله؛ فلا ينتفع العبد بكثرة صلاة ولا صيام حتى يحقق هذا الركن الركين والأمر العظيم، أعني: عقيدة الولاء والبراء، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، ولهذا قال النبي كما في «صحيح مسلم» عن أبي مالك سعد بن طارق بن أشيم بن مسعود الأشجعي، عن أبيه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله**».

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ في كتاب «التوحيد» له معلقًا على هذا الحديث:(وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال؛ بل ولا معرفة معناها مع التلفظ بها؛ بل ولا الإقرار بذلك بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له؛ بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه فيالها من مسألة ما أجلها، وياله من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع). اهـ. وهذا أخذًا من قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ثم ولئلا يظن العبد أن هذا الدين يقوم على تصحيح المعتقد، وأعمال القلوب فحسب وأن العمل ليس بلازم لذلك، قال تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ فذكر أعظم عبادة بدنية؛ ألا وهي الصلاة وأعظم عبادة مالية؛ ألا وهي الزكاة منبهًا على ما سواهما بطريق التبع أو الأولوية ؛ ليعلم العباد كلهم أن العمل لازم من لوازم الإيمان فلا يتصور وجود للإيمان بمعزل عن العمل بشرائع الإسلام ومبانيه العظام على أن هناك تفصيلًا لعلاقة العمل بالإيمان مذكور في غير هذا الموضع (راجع كتابنا إسعاف السئول بشرح ثلاثة الأصول ففيه

الكفاية والبيان بحمد الله تعالى).

وفي قوله: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ إشارة إلى وجوب القيام بها والاعتناء بها وبشروطها وواجباتها وأركانها من الطهارة لها وإقامتها في ميقاتها الزماني والمكاني بكامل مستحقاتها ومتعلقاتها، وإلا لقال: (وصلوا) أو (وأدوا) ولكنه أمر بإقامة الصلاة أي: على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، فليس المقصود إذن مجرد الأداء، ولكن المراد أداؤها على وفق قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» أخرجه البخاري من حديث مالك بن الحويرث، رضي الله عنه.

وكذلك لم يقل: (وزكوا) وإنما أمر بإيتاء الزكاة مما يدل على وجوب اطمئنان النفس حال إخراجها بأن تكون النفس طيبة بها فرحة بأدائها تعبدًا وحبًّا لله رب العالمين.

فإن قال قائل: فأين ذكر الرسول في هذه الآية مع أنها حصرت الأوامر التي أمر الله بها العباد ؟ **فالجواب**: لقد تضمنت الآية الأمر باتباع الرسول في غير ما موضع:

الموضع الأول: في قوله ﴿وما أمروا﴾ : فإن البناء للمجهول يدل على إرسال الرسول، فمن الذي أمر هنا؟ إنه الله جل وعلا، ولكن كيف أمر؟ هل كلم عباده بأوامره كفاحًا دون ترجمان ؟ ومباشرة دون واسطة ؟ الجواب: كلا؛ بل أمرهم وخاطبهم بواسطة رسله، فكان هذا دالًّا على إرسال الرسول كما أنه دال على وجوب تصديقه والانقياد له لأنه مُبَلِغ عن الله جل وعلا، فمن رد

أمره أو خالف هديه كان رادًّا لأمر الله جل وعلا وهذا كفر بالله العظيم .

الموضع الثاني في قوله: ﴿لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥] هذا أمر مجمل فمن أين للمأمورين أن يعرفوا تفاصيله ؟ فكان ذلك دالًّا على وجوب متابعة الرسول والأخذ بأوامره، فالرسل هم الذين اصطفاهم الله جل وعلا لهذه المهمة العظيمة؛ ألا وهي بيان كيف نعبد الله جل وعلا. كما يحب ربنا ويرضى؟

الموضع الثالث: في قوله ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ فإنه لو أمر بمطلق الصلاة ومطلق الزكاة؛ لكان للعباد أن يصلوا كيفما شاءوا، ويزكوا بأي قدر شاءوا من أموالهم؛ لكن عندما أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة دل ذلك على أن هناك صفة مخصوصة لهما لا يقبل الله جل وعلا الصلاة والزكاة بدونهما، فمن الذي يبين هذه الصفة ؟ إنهم الأنبياء والمرسلون، فكان ذلك دالًّا على إرسال الرسول، ووجوب اتباع الرسول وتعزيره وتوقيره ومحبته.

وعليه فإن هذه الآية قد اشتملت على ما أمر الله به عباده وما أراده منهم من تحقيق العبودية قولًا وعملًا، ولهذا قال الله جل وعلا في ختامها: ﴿وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾ أي: هذا هو الدين المستقيم، والصراط القويم الذي لا يقبل الله جل وعلا غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] وفي قوله تعالى: ﴿دِينُ القَيِّمَةِ﴾ دلالة على عدالة هذا الدين وأفضليته وأنه جاء ليُقَوِّمَ حياة العباد والبلاد فلا قوام للعباد ولا البلاد إلا بهذا الدين المستقيم القائم بكل ما يحتاجه العباد من تعاليم وأوامر ونواهٍ تهديهم إلى الصراط المستقيم.

وفي قوله ﴿القَيِّمَةِ﴾ إشارة إلى عظمة هذا الدين وعلو منزلته فهو دين

قيم عظيم، فقد جاء وسطًا بين طرفين وعدلًا بين ظلمين، لا إفراط ولا تفريط، وهذه هي الحنيفية السمحة التي أمر الله جل وعلا بها عباده وزكاها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. كما أنه يمكن أن يقال إن كل ما بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ﴾ هو بيان لهذه العبادة فيكون أول الآية دالًّا على الأمر بالعبادة وما بعد ذلك تفصيل وتقرير لحقائقها والمعنى أن اعبدوا الله حالة كونكم مخلصين له الدين حنفاء مقيمين للصلاة مؤتين الزكاة، وكل ذلك محتمل متوجه في الآية فهذا من اختلاف التنوع لا التضاد. والله أعلم.

الاستنباط السابع والتسعون

ذهب بعض أهل العلم إلى جواز التصوير الفوتوغرافي والصور التي في الكمبيوترات، والبث المباشر بدعوى أن هذه الصور لا زيادة فيها على الحقيقة فهي مجرد عكس للحقيقة وحبس للظل، فليس هو من باب التصوير ولا تسمى صورة في هذه الحالة، والبعض يعلل بكونها تزول بإغلاق الجهاز، وآخرون يقولون: إن أصلها ليس بصورة، وللإجابة على هذه الشبه أقول وبالله التوفيق :

إن المتأمل في قوله ﷺ : «**ومن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي**». «متفق عليه»واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة،

وفي رواية مسلم : «**فإن الشيطان لا يتمثل بي**». وفي «صحيح مسلم» من حديث جابر عن النبيﷺ : «**من رآني في النوم فقد رآني إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي**» وفيه عن جابر أيضا : «**من رآني في النوم فقد رآني فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي**» .

يجد أن هذه الأحاديث كلها دالة على أن المرئي في المنام هي صورة النبي ﷺ، وقد بَيَّنَ ﷺ امتناع أن يتمثل الشيطان بصورته، ولا شك أن رؤيته ﷺ في المنام ستكون بنفس معالمه وصفاته عليه الصلاة والسلام، فهي صورته حقيقة، وهي مطابقة للواقع، وهذا دليل على أن الصورة وإن كانت مطابقة تمامًا للحقيقة والواقع، فهي لا تخرج عن كونها صورة، فقد سماها النبي ﷺ صورة، بدليل هذه الأحاديث الصحاح .

فإن قيل: أنا لم أصور بل عكست فقط، فالجواب أن هذه مغالطة عقلية؛ لأن من أثبت أنها صورة فإنه قد صورها، ولا يغني عنه قوله إنها عكس أو حبس للظل، علمًا بأن الذين صنعوا هذه الأجهزة سموها صورة (photo)، والبعض لا يفهم من التصوير سوى الرسم والنحت وهذا مخالف للغة العرب بل ولعموم النصوص التي تكلمت عن سائر أنواع الصور، وقد ذهب أصحاب المعاجم اللغوية إلى أن الصورة هي الشكل، وعليه فكل ما كان له شكل فهو صورة، وهذا الذي فهمه ابن عباس حيث عمم حكم المنع من التصوير على كل أفراده، ثم استثنى للحاجة ما لا روح له كما في «صحيح مسلم» من طريق سعيد بن أبي الحسن قال: جاء رجل إلى

ابن عباس فقال: إني رجل أصور هذه الصور فأفتني فيها؟ فقال له: ادن مني فدنا منه، ثم قال: ادن مني فدنا حتى وضع يده على رأسه قال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفسًا فتعذبه في جهنم**» وقال: إن كنت لا بد فاعلًا فاصنع الشجر وما لا نفس له.

وليست المضاهاة هي العلة الوحيدة في تحريم التصوير؛ بل هناك عدة علل، فمنها التشبه باليهود والنصارى، ومنها أنها كانت أول سبب لوقوع الشرك في الأرض، كما في «البخاري» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومنها ضياع الأموال والأوقات وغير ذلك من العلل .

وعليه فالصورة التي تظهر في الشاشات والكمبيوترات والبث المباشر والكاميرات الفوتغرافية؛ هي داخلة في جملة التصاوير، وإن قيل إنها تزول فإن هذا لا يغير من الحكم والمسمى شيئًا؛ لأنه من المعلوم أن الصورة التي في المنام تزول ومع هذا سماها الشارع صورة، فلا يسوغ بعد هذا تسميتها بغير اسمها تجويزًا لها كقولهم: (عكس أو حبس للظل أو ما شابه ذلك).

فإن قيل: إذن رؤية النبي ﷺ في المنام، ورؤية ذوات الأرواح على السطوح الصقيلة، والمرايا، وسطح الماء هي الأخرى محرمة ؛ لأنها لا تنفك عن كونها صورة.

قلنا نعم هذا هو الأصل، ولولا أن الشارع فرق بين ما للإنسان فيه عمل، وما ليس للإنسان فيه عمل، لتوجه القول بالتحريم لعموم الأدلة

الواردة بأبلغ صيغ العموم في تحريم التصوير والتصاوير جملة وتفصيلًا.

ولكن لما كانت الصور التي تظهر في الرؤى والمرايا والسطوح الصقيلة وسطح الماء لا دخل للإنسان فيها ولا عمل له فيها، لم يُحَمَّل تبعتها ؛ ولم يكلف باجتنابها لكونه لا يد له في ذلك، وإنما مناط التكليف بالأمر والنهي مندرج تحت ما كان بوسع الإنسان أن يقوم به لعموم قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولهذا لم تدخل في عموم التحريم، فلازم الآية ومفهوم المخالفة منها أن ما ليس للإنسان فيه كسب لا يؤاخذ عليه، ولا يُحَمَّلُ تَبِعَتَه فلله الحمد والمنة.

ولهذا فرق الشارع بينهما فأحل هذه وحرم هذه ؛ فوجب الوقوف على ما أخبر به الشارع فهو أحكم وأعلم، كما أننا عباد لله تعالى والله تعالى، يقول:﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، فعلينا باجتناب ما نهى عنه وقبول ما أحله لنا هذا مقتضى العبودية لله رب العالمين.

كما أن في الحديث دليلًا على أن العبرة في هذا الباب هو بما آل إليه الأمر والشيء، فالحكم إنما يكون على النتائج، فإن النبي ﷺ سماها صورة مع أنها مجرد رؤية منامية، ولكن لما كانت النتيجة أنه رأى الصورة أخذت الحكم والمسمى، وذلك دال على أنه متى ما ظهرت الصورة أخذت الحكم، ولا ينظر إلى المراحل المتقدمة على ذلك لكونها ليست هي محل النزاع ؛ لأنها لم تكن صورة أصلًا، كما أن المسافة بين الواقف أمام السطوح الصقيلة وأمام

الماء هي مسافة انتقلت فيها صورته فظهرت عليها، فلم تسم هذه المسافة صورة لكونها لم تظهر بعد فلما ظهرت سميت، ومما يبين ويؤكد هذا المعنى ما جاء في حديث جبريل المشهور في «صحيح الإمام مسلم» وذلك لما قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إذ طلع علينا رجل، فمع أنه عرف فيما بعد أن هذا الرجل هو جبريل إلا أنه مازال يروي الخبر قائلًا : إذ طلع علينا رجل وهكذا رواه عنه ابنه عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ ؛ لأن العبرة بما يظهر لنا، أما ما غيب عنا أو مرَّ بمراحل قبل ذلك، فلا تعلق له بالحكم النهائي على الشيء، ولا يمكن بحال أن يغير من مسماه ؛ إذ المقصود هو ما ينتهي إليه الحال.

فالحكم على الأشياء إنما يقع على الشكل المشاهد، لا على ما يخفى أو يكون وراء ذلك.

ألست ترى الطعام يدخله العبد، أو الحيوان في فمه على أحسن ما يكون ثم يتحول إلى بول وغائط، ولما كان الحكم على حالة الشيء المعتبرة كان الطعام المشروع طاهرًا حلالًا، وكان البول والغائط نجسًا حرامًا. فلا يقال إن هذا البول والغائط هو نفسه الطعام الذي تم تناوله، فكل بحسب حاله.فيتم الحكم عليه حلًا أو حرمة.

وفي هذا القدر من الاستدلال الرد على الذين يحللون التصوير بكونها أصلا حبسًا للظل، أو بكونها إشارات، أو ذبذبات أو نحو ذلك، أو أنها مطابقة للواقع.

فنقول : المهم ما هو الشكل النهائي؟ أليس صورة ؟ فإذن فالحكم يتعلق بهذه الحالة لا بالمراحل التي قبلها.والله أعلم.

ولعل من الفاضل التنبه إلى مسألة مهمة في هذا الباب، ألا وهي أن كثيرًا من الدعاة وطلبة العلم؛ بل وبعض العلماء يظن أن الله تعالى كلفه بهداية الناس كلهم، وأن الواجب عليه أن يدخل إلى كل بيت، وأن يخاطب كل إنسان، وكأنه شمس تشرق على مختلف بقاع الأرض، ولعل الدافع لهم على هذا رؤيتهم لتسارع الباطل وأهله في الفساد والإفساد في مشارق الأرض ومغاربها، فاستفزهم ذلك إلى سلوك بعض السبل التي أقل ما يقال فيها أنها مظنة ركوب الحرام، كيف وقد يركب بعضهم الحرام ؟!

فأقول : إن هذا السعي الحثيث والحرص الشديد على هداية العباد كلهم في مشارق الأرض ومغاربها، وإن كان مطلبًا حميدًا؛ إلا أن الله تعالى لم يكلفنا به لعلمه تعالى بعدم قدرتنا عليه، فنحن بشر ولنا قدرات محدودة، ولهذا جاء التشريع بما هو في إمكان البشر، كما أنه مما ينبغي أن يتفطن له أن الله تبارك وتعالى لا يمكن بحال أن يعوز الأمة إلى الحرام، فإن هذا إذا كان ممتنعًا في باب الأرزاق، فلأن يمتنع في باب الدعوة إلى الله تعالى هو من باب أولى؛ ولهذا أخبر تعالى أنه طيب ولا يقبل إلا طيبًا، وبذلك أمر المرسلين وأمرهم أن لا يسلكوا في الدعوة إليه أي مسلك محرم، هذا هو الأصل العام في دعوة الرسل كلهم أنهم يدعون إلى الله بما أحل الله من الوسائل المتاحة لهم، وأنهم لا يتكلفون ركوب الحرام في الدعوة إليه، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وبما أن الهداية عنده تبارك وتعالى وإنما تطلب منه جل وعلا؛

فلهذا أمرنا أن نُجْمِلَ في طلبها، وذلك بأن لا نأتيها إلا من أبوابها التي شرعها الله لنا، ولهذا قال الله تعالى مبينًا أنه سبحانه قادر على أن يهدي العباد كلهم، ولكن على الداعية أن يسعى بما أتيح له قال تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥] . وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَل لله الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ الله إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠].

وإن كان قد تقرر في علم الأصول أنه لا يسوغ تقديم المصالح المتيقنة على المفاسد المتيقنة إذا استويا في المرتبة، فكيف بمن يقدم المصالح الظنية على المفاسد اليقينية، إذ إن هداية الناس عبر هذه الوسائل أمر ظني، فإن هذه الأجهزة لم توضع لذلك ففيها من بحار الباطل ما ينغمر فيه الحق، ولو كان نهرًا، في حين أن في الظهور هناك بالصور مفاسد يقينية، فمنها الترويج لتلك القنوات، وكون ذلك ذريعة إلى إدخال بعض الصالحين الدشوش إلى بيوتاتهم، والتلبيس على الأمة، والتصوير المحرم، وغير ذلك كثير، ألا فلنتق الله تعالى ولنتبع ما أحل الله لنا من الوسائل المشروعة والمباحة، وإن طال

الطريق وتطاول الزمن، فإن الهادي هو الله تعالى، وهو الحكيم العليم، فلن نستعجل النصر بحرصنا، ولكن بالتقوى والصبر واليقين. والله نعم المولى ونعم النصير .

فالحذر الحذر من أن تكون من الجاهلين الذين يحرصون على هداية الناس كلهم، ولو عن طريق ركوب أي سبيل ممكن بغض النظر عن مشروعيته.والله أعلم. وهو الهادي على سواء السبيل .

فإن قيل ألا يمكن أن ندافع الباطل في القنوات الفضائية وغيرها، فالجواب: إن مدافعة الباطل لا تكون بالباطل وإنما تكون بالحق، ولهذا قال تعالى:﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ [يونس: ٣٢]، وليس من الحق في شيء ظهور صور الدعاة في هذه القنوات المشبوهة، ولا حتى ما تسمى بالإسلامية، وليت شعري ما هي المصلحة من ظهور صور الدعاة هناك أهو الرياء والسمعة أم حب الشهرة؟ حاشا دعاة الحق من ذلك، وإنَّا نعيذهم ونُجِلُّهُم من أن يكونوا كذلك، على أن ظهورهم لا يعدو أن يضفي الشرعية على مواطن الفساد والإفساد، ولكن إن تصورنا وجود قناة إسلامية بحتة ليس فيها من المحرمات شيء وكان لابد منها فبالصوت فقط دون الصورة وذلك بشروط قررها العلماء المحققون:

١- أن يكون مخلصًا لله تعالى متقيًّا له خائفًا راجيًا. فيكون أبعد ما يكون عن العجب والرياء والسمعة، وحب الظهور والشهرة .

٢- أن يقول ما يريد، لا ما يريد المبطلون .

٣- أن يكون حديثه في الأصول والمسائل الكبار، وهموم الأمة التي تعاني منها اليوم، كالولاء والبراء وبيان حقائقه، و التحريض على جهاد أعداء الله تعالى، وكشف خطط العلمانيين والحداثيين والرافضة وأمثالهم والرد على شبههم، والتحذير من اليهود والنصارى ومخططاتهم التوسعية الاستعمارية في العالم الإسلامي، ووجوب الانتفاض في وجوههم حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

٤- أن يُبَيِّنَ فساد أجهزة الإعلام؛ حتى لا يتخذ المبطلون من خروج الدعاة عبر وسائلهم ذريعة لترويج باطلهم تحت غطاء الحرية، أوالديمقراطية، أو الإسلامية، أو بما يعرف اليوم بـ (أسلمة الإعلام) كذبًا وزورًا.

٥- أن لا يسبق برنامج الداعية فساد ولا عهر ولا باطل، وأن لا يتخلله ذلك من باب أولى وأن لا يعقبه ذلك بداهة.

فإن قيل هذه الشروط لا يمكن معها أن يظهر أي داعية على هذه القنوات المفسدة، ولا يتصور هذا إلا في إعلام طاهر من أدران الضلال والانحراف والزندقة .

قيل: لم يكلفنا الله تعالى أن نركب الحرام للدعوة إليه، فإن أَبَوْا فتذكر قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

[الأحزاب: ٢٣].والله تعالى أعلم.

الاستنباط الثامن والتسعون

أساليب الدعوة إلى الله تعالى ثلاثة أولها: بالحكمة والموعظة الحسنة وهي أعلاها، ثم بالمجادلة بالتي هي أحسن، ثم بالمجادلة مع استعمال القوة والظهور والغلبة، ولو تضمن شيئًا من الردع والزجر والغلظة في الخطاب وهذه كلها تدور في فلك الرفق المأمور به شرعًا، فإن الرفق كما يكون لينًا فإنه قد يكون شدة أيضًا، وفي قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع فرعون وقومه بيان لهذه الأساليب الثلاثة؛ وإليك بيان ذلك من القرآن العظيم : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ۞ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا ۞ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٠ ـ ١٠٣].

وقوله تعالى:﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَنْ

أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۞ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۞ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۞ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۞ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۞ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۞ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۞ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۞ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۞ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۞ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ ۞ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۞ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۞ قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۞ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۞ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٦ ـ ٣٩].

فألان له موسى ـ عليه السلام ـ الخطاب في بادئ الأمر، ثم خلط ذلك بنوع من الغلظة والشدة، ثم بهره بالآيات الواضحات والبراهين الدامغات، ثم نابذه في نهاية المطاف وخرج مهاجرًا إلى الله، فتبعه فرعون وجنوده، فكان ما جرى عليهم في اليم.والله أعلم .

الاستنباط التاسع والتسعون

من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ [النمل: ١٦] مع قوله تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

فإن في هذا دلالة واضحة على أن ملك العبد مهما كان وامتد وعظم إلا أنه ملك قاصر؛ فإنه لا يتأتى له الإحاطة بكل ما يجري في حدود مملكته مهما كانت جنوده؛ لأنه لا يزال هو العبد الضعيف ذو القدرات المحدودة .

أما ملك الله تعالى؛ فإن الله تعالى محيط به قبل إيجاده وبعد إيجاده، فالكون كله خلقه الله تعالى بقدرته وعلمه وحكمته، فقد علم كل ما هو كائن قبل أن يكون، وكتب ذلك في اللوح عنده قبل أن يخلق خلقه بخمسين ألف سنة، كما في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

وأما العبد فمهما أوتي من الإمكانات، فإنه لا يزال العبد عبدًا ولهذا قال له الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾.

ثم قال الهدهد بعدها بآيات: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ

العَرْشِ العَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦].

ولهذا قال بعدها سليمان بآيات:

﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠]. والله أعلم.

الاستنباط المائة

من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«**إذا اشتد الحر، فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم، واشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضًا فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير**» «متفق عليه» واللفظ للبخاري .

ووجه الاستنباط أن كثيرًا من الناس يعزون شدة الحر إلى حرارة الشمس، وهذا غلط فإن الشارع قد بين أن شدة الحر إنما مصدرها فيح جهنم وأنه من أثر النفس الذي أذن الله تعالى به كما هو صريح الأخبار.

كما أن في الخبر إشارة إلى أن جهنم في الأرض كما هو قول بعض أصحاب النبي ﷺ.

كما أن في الخبر إشارة إلى أن جهنم مخلوقة موجودة خلافًا للمعتزلة ومن نحا نحوهم .

والله أعلم .

الاستنباط الواحد بعد المائة

من «صحيح البخاري» عن أبي قتادة قال سرنا مع النبي ﷺ ليلة فقال بعض القوم: لو عرست بنا يا رسول الله قال: **«أخاف أن تناموا عن الصلاة»** قال بلال: أنا أوقظكم فاضطجعوا وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه فنام؛ فاستيقظ النبي ﷺ وقد طلع حاجب الشمس فقال: «**يا بلال! أين ما قلت؟»** قال ما ألقيت علي نومة مثلها قط قال: «**إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء. يا بلال قم فأذن بالناس بالصلاة»** فتوضأ فلما ارتفعت الشمس وابيضت قام فصلى.

مع ما جاء في «الصحيحين» عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ طرقه وفاطمة فقال: «**ألا تصلون!»** فقلت يا رسول الله: إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت له ذلك، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول: «**وكان الإنسان أكثر شيء جدلًا**».

ففي هذين الحديثين بيان متى يجوز الاحتجاج بالقدر، وأنه يجوز ذلك إذا وقع الأمر وحصل، وأما إذا لم يقع بعد فهذا غير جائز؛ لأنه اتباع للظن ورجم بالغيب وقول بغير علم والله تعالى يقول:﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا**﴾ **[الإسراء:٣٦]** . ولكن لا يجوز بحال الاحتجاج بالقدر على فعل مزيد من المعاصي أو المقام عليها. والله

أعلم .

الاستنباط الثاني بعد المائة

من قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**الدعاء هو العبادة**» لقد قيل في معنى الدعاء عدة معانٍ قوية ووجيهة ولكن قد ظهر لي معنى لطيفٌ في توجيه هذا الخبر وهو أنه لما كان الدعاء يتردد بين كونه دعاء مسألة وهو ما تضمن طلبًا تصريحًا كان أو تلميحًا ودعاء عبادة وهي سائر أنواع العبادات الأخرى البدنية والقلبية المتضمنة لمعنى السؤال والطلب في مآلها ونتيجتها كالصلاة والزكاة وغير ذلك من ألوان العبادات ظهر معنى كون أن الدعاء هو العبادة فليس هناك عبادة بهذا المفهوم خارجة عن معنى الدعاء.والله أعلم.

الاستنباط الثالث بعد المائة

من قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۞ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢].

فإن المتأمل في طلبة الكافرين وطبيعة الجواب عليه يجد أن طلبتهم اشتملت

على أمرين تنزل الملائكة أو رؤية الرب جل وعلا في حين أن الجواب في الآية جاء عن شق واحد من طلبة هؤلاء المستكبرين المعاندين وهو طلبهم إنزال الملائكة عليهم فأجابهم الله تعالى أن الملائكة إنما يتنزلون بالعذاب عليهم وأما طلبهم لرؤية الله تعالى فلم تتطرق له الآية إذلالًا ومهانة لهم؛ ولأن الأمر في حق هؤلاء هو في غاية الامتناع؛ لأن الكفار لن يروا ربهم لا في الدنيا، ولا في الآخرة كما قال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

الاستنباط الرابع بعد المائة

من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

فإن فيها بيانًا لضرورة إغراء هذه العداوة وإزكائها في النفوس المؤمنة وأن العبد لن يستطيع أن يتعامل مع الشيطان الرجيم هذا العدو اللدود التعامل الصائب إلا إذا استشعر حقيقة هذه العداوة، وإلا إذا اتخذه عدوًّا ليتعامل معه معاملة العدو لعدوه، والمتأمل يجد أن أكثر العباد لا تخفى عليه عداوته ولكنهم لا يتخذونه عدوًّا ولا يعاملونه معاملة العدو لعدوه؛ ولهذا لما غفل كثير من الناس عن هذا المعنى، تلاعب بهم الشيطان حتى اتخذ منهم أولياء وأعوانًا وأنصارًا، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠، ٦٢].

وقد أشارت الآيات لهذا المعنى وأن أكثر العباد يتورط في ولاية الشيطان من حيث يشعر أو لا يشعر كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. فلا نجاة للعبد بعد توفيق الله تعالى إلا بتحديث النفس وتذكيرها بهذا العدو والتعامل معه على هذا الأساس ومن هذا المنطلق ولكن من يفعل ذلك؟! إنهم أقل القليل كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۞ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢]. فاللهم اجعلنا منهم.. آمين. والله أعلم.

الاستنباط الخامس بعد المائة

من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر:٨٠]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٤١]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٦٠].

فالمتأمل في هذه الآيات، يجد أن كلًا من هؤلاء المكذبين وصفهم الله تعالى بأنهم كذبوا المرسلين هكذا بصيغة الجمع مع أن المبعوث إلى كل منهم رسول واحد، فإما أن يقال: إن هذا من إطلاق الكل وإرادة البعض، وإما أن يقال: إن هذا اسم جنس فيصح إطلاقه على بعض أفراده، وإما أن يقال: ـ وهنا يكون الاستنباط ـ إن هذا الجمع مراد لذاته وإن هذه الآيات تقرر قاعدة شرعية كبرى ألا وهي أن من كفر أو كذب رسولًا واحدًا فقد كفر وكذب جميع المرسلين وهو كافر بالله العظيم، ولهذا جاء هنا الكلام الرباني بصيغة الجمع، وهذه العقيدة هي ما أجمع عليها المسلمون: أن من كفر برسول واحد فقد كفر بجميع الأنبياء والمرسلين.

وقد قرر الإسلام هذه العقيدة وذلك كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾ [النساء ١٣٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالله وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا

بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۞ أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

ومن السنة ما أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث عمر بن الخطاب في حديث جبريل المشهور:

«فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت....» الحديث.

الاستنباط السادس بعد المائة

من قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۞ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ـ٩٩].

فالآيات دالة على أن من أعظم ما يزال به ضيق الصدر هو التسبيح والصلاة والمجاهدة في عبادة الرب تبارك وتعالى، ولهذا لما غفل عن هذا المعنى بعض العباد تراه إذا ضاق صدره فزع إلى المحرمات من المسكرات والملهيات وإلى الفواحش والعياذ بالله.

فما أشقى الإنسان الذي يفر مرتميًا في أحضان أعدائه والله تعالى يقول: ﴿فَفِرُّوا إِلَى الله إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

الاستنباط السابع بعد المائة

من قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى الله الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦].

فإن هذه الآية تدل على أن القول بأن الشيء حلال أو حرام بناء على الظن والهوى والخرص كذب على الله تعالى، والكذب على الله تشريع وحكم بغير ما أنزل الله وكل هذا كفر مخرج عن الملة والعياذ بالله، وقد جاءت هذه الآية بعد تقرير سابق يدل على أن المشرع هو الله رب العالمين ومن أرسلهم الله تعالى من الأنبياء والمرسلين مبلغين عن الله تعالى شرعه إلى عباده فقال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ الله حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ الله إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٤، ١١٥].

فالذي يحل ويحرم أصالة وحقًّا هو الله رب العالمين وحده لا شريك له، وكل من استحل شيئًا قد حرمه الله تعالى؛ فقد شرَّع من دون الله وكذب على الله وهذا كفر بإجماع المسلمين، فالعلماء من أهل السنة والجماعة متفقون على أن من استحل الحرام المجمع على تحريمه أو حرم الحلال المجمع على تحليله فهو كافر

مرتد عن دين الإسلام.

وأما الاستنباط فهو متعلق بتحقيق المناط في سبب كفر من استحل ما حرم الله، فمن الواضح من نصوص الكتاب والسنة أن المستحل كاذب على الله مشرع من دون الله فهو مبدل لشرع الله معاند لحكمه سبحانه وتعالى، فالله تعالى يقول هذا حلال، وهذا العبد الحقير يقول بل حرام، والعكس فيعمد المخلوق إلى تحريم ما أحله الخالق وتحليل ما حرمه الخالق العظيم.

والمتأمل في أقوال بعض المرجئة بل وغلاتهم يجد أنهم يحصرون الكفر في الاستحلال، ولو تأملنا سبب كفر المستحل لوجدناه أنه لكونه حاد الله في حكمه وشرعه فالله يُحرم وهذا يحلل، ومن هنا نعلم أن سبب كفر المستحل لما حرم الله كونه شرع من دون الله كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الله وَلَوْلا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى:٢١]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ الله وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾ [النساء:٦٠، ٦١]، وقال بعدها بآيات: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء:٦٥].

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِالله وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم

مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ الله وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ [النور:٤٧ـ٥٢].

فتأمل أنه هؤلاء الذين نفى الله عنهم الإيمان يراوغون عن حكم الله ويتحاكمون ويحكمون بالطاغوت ومن هناك كانوا كفارًا.

وإلا فأي فرق بين من يقول الزنا حلال ويقع فيه، وبين من يقول الزنا حرام ويقع فيه؟! إلا أن الأول قد شرع من دون الله فجعل الحرام حلالاً.. فتأمل.

فمناط الكفر إذن هو التشريع من دون الله ورد حكم الله ومحادة حكمه تبارك وتعالى، وتأمل أن هذا المستحل لا يلزمه أن يقول هذا حكم الله حتى يكون كافرًا، بل مجرد كونه استحلَّ الحرام فقد كفر وارتد عن الإسلام.

كما أن من كتب دستورًا قال فيه: (لا حرج مِن فعل كذا وكذا) أو ما شابه ذلك من التشريعات الجاهلية، في حين أن الله تعالى قد حرَّم ذلك الشيء؛ فهذا مُستَحِلٌّ لما حرم الله، فالله تعالى يقول: حرام، وهذا يقول لا حرج. والعكس كذلك في تحريم ما أحل الله، والدساتير الجاهلية اليوم تَعِجُّ بزخم كبير وكم هائل من هذه التشريعات الجاهلية ومحادين فيها حكم الحكيم العليم والخلاق العظيم.

وعليه فيلزم هؤلاء المرجئة أن يقولوا بكفر الحاكم بغير ما أنزل الله، لكونه

شرع الأحكام المعارضة لحكم الله وأمر الناس بها وحملهم عليها بالحديد والنار والويل كل الويل لمن تسول له نفسه أن يعارضها؛ ليعمل بحكم الله وشرعه، فالقانون عندهم فوق الشرع!! فأي محادة واستحلال فوق ذلك؟!! وكما تقدم لا يلزم أن يقول هذا حكم الله، فالآيات دالة على أن مجرد الاستحلال للحرام والحكم بغير ما أنزل الله كفر وردة عن الإسلام.

فلو سألت لماذا أجمع المسلمون على كفر من استحل ما حرم الله؟ لما كان هناك جواب سوى أنه قد رد حكم الله تعالى ونصب نفسه مشرعًا يحكم بغير حكم الله تعالى الذي هو الحكم وإليه الحكم تبارك وتعالى. فعارض حُكْمُهُ حُكْمَ الله تعالى في هذه المسألة، ولاحظ أن هذا المستحل لم يقل أن هذا هو حكم الله في المسألة بل فقط ابتدع شرعًا من عنده قال فيه هذا حلال وهذا حرام تبعًا لهواه أو لضغط الواقع أو لما يمليه عليه شياطين الإنس والجن، وهذا ما ذكره الله تعالى في كتابه عن أهل الجاهلية الذين حرموا وأحلوا بأهوائهم وهم يعلمون أن هذا حكمهم وليس هو حكم الله ولم يقولوا أن هذا هو حكم الله كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ * أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ *وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ *وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله إِن يَتَّبِعُونَ

إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:١١٢ـ١١٧].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، ثم ذكر الله تعالى كفر أهل الجاهلية المبدلين لحكم الله وشرعه فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ الله زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَالله لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٣٦ـ٣٧].

ولو تأمل القوم حقيقة وسبب كفر من استحل الحرام؛ لرجعوا عن قولهم هذا ولعلموا أن خلافهم مع أهل السنة والجماعة خلاف مُطَّرح يجب تركه إذا تحقق هذا المناط عندهم. والحق أحق أن يتبع.

فحصر الكفر في الاستحلال فقط واشتراط أن يَنْسبَ المُبدلُ لشرع الله ذلك التبديل إلى الله تعالى بأن يقول: هذا هو حكم الله في القضية كل هذا من القول على الله بغير علم ومن لوي أعناق النصوص وتحريفها وتبديلها فالحذر الحذر! والله تعالى يقول:

﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ القَوْلِ وَكَانَ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً * هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي

الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ الله عَنْهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [النساء:١٠٧ـ١٠٩].

فأهيب بإخواني الدعاة إلى الله تعالى ألا يكونوا مُعَذِّرين عن الطاغوت، وأذكرهم أن يكون غضبهم لله تعالى أعظم من غضبهم لهؤلاء المبدلين لشرع الله، فكيف يسوغ المنافحة عنهم والدفاع المستميت بين يديهم في حين أنهم عطلوا حكم الله في خلقه، وألحدوا في اسم الله الحكم والرب، فهل يليق هذا يا عباد الله. والله أعلم.

الاستنباط الثامن بعد المائة

من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

فإن المتأمل لهذه الآية وما شابهها وكذلك الأحاديث الصحاح يجد أن الله تبارك وتعالى قد أمر أولياء الأمور بالقيام على الأولاد والرعية بحق الله تبارك وتعالى.

والاستنباط متعلق بأن الله تعالى أمر بأشياء ونهى عن أخرى وبعضها متعلق بالكبار فقط وبعضها متعلق بالكبار والصغار، وبعضها متعلق بالكبار دون الصغار، والمتأمل للنصوص يجد أن الله تعالى حينما يأمر الصغار بأمر ما

فإنه يتعين على الكبار القيام عليهم بواجب الحسبة بمتابعتهم بتذكيرهم إذا نسَوا وتنبيههم إذا غفلوا وإن كان الصغير لا إثم عليه في ذلك إلا أن الكبير قد يأثم بتفريطه في القيام بواجب الحسبة على من تحت يده من الصغار، فللصغار الأجر ولا إثم عليهم، وللكبار الأجر بالقيام عليهم، وعليهم الإثم إذا قصروا في هذا الواجب، وإليك بعض النصوص الدالة على ذلك:

ففي الصحيحين واللفظ للبخاري، عن عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته: الإمام راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته»** قال: وحسبت أن قد قال: **«والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسئول عن رعيته»**.

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: **«مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع»**.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ، لقي ركبًا بالروحاء فقال: **«من القوم؟»** قالوا: المسلمون، فقالوا: من أنت؟ قال: **«رسول الله»** فرفعت إليه امرأة صبيًّا فقالت: ألهذا حج؟ قال: **«نعم، ولك أجر»**. نعم لها الأجر وعليها أن تجنبه محظورات الإحرام ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

وعليه فالراعي مطالب بأن يجنب صغاره فعل المحرمات من سماع

المحرمات والنظر إليها من أفلام ومسلسلات وأغانٍ ماجنة وفاحشة وموسيقى، وعليه أن يجنبه الإسبال والكذب والغِيبة والنميمة وتناول المحرمات والقزع والتشبه بالكفار، وغير ذلك مما جاءت النصوص بالمنع منه فهذا دور المربي أن يقوم بذلك؛ لينميَ الفطر السليمة حتى تترعرع، وتؤتي أكلها بإذن الله وتوفيقه كما في الصحيحين واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»** ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿ فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾. والله أعلم.

❁❁❁

تـم الفراغ منـه في آخر شهر محرم من عام ألف وأربعمائة وتسعة عشرة من الهجرة .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله ومَنِّه وكرمه وجوده وإحسانه يوفق العبد إلى الطيبات والصلاة و السلام على خير البريات خير من عمل بالباقيات الصالحات صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه السابقين بالخيرات .

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

أبو عبد الله

صادق بن عبد الله